

الفصل الأول

**ما الذي يحتاج إليه مدرس النحو العربي
وينبغي له أن يتسلح به؟ ولماذا؟**

تقديم:

في هذا الفصل سنتناول مسائل نرى من الضروري أن يلزم بها مدرس النحو ليتسنى له أداء رسالته على الوجه المتوخى، ذلك أن المعلم يعد قطباً من الأقطاب الأربعة للعملية التعليمية^(١)، وركناً من أركان المنهاج التربوي كما يؤكد على ذلك الأستاذ "سبيرز هارلد"^(٢). لأن هذا المعلم يضطلع بمهمة خطيرة وحساسة، فهو الذي يعهد إليه تنفيذ المنهاج، و ترجمته إلى واقع. انطلاقاً من أن قيمة منهاج ما تكمن في مدى تنفيذه عملياً. لأن "المنهج شيء حي، ويصبح حقيقياً فقط عند ما يبدأ المعلم والمتعلم في تنفيذه عملياً"^(٣). وهذا المدرس يجب أن يكون من ذوي الخالصة الأقوياء؛ ذلك أن من يسند إليه تعليم الناشئة اللغة لا يكون بمقدوره القيام بعمله على نحو فعال ما لم تكن له الخبرة الكافية بنظام اللغة^(٤) المراد تعليمها، وكذا طرائق تحليلها. إذ "إن اللسانيات تعد الأداة الأهم التي تساعد مدرس اللغة على وصف اللغة المراد إكسابها متعلميه وصفاً موضوعياً علمياً، وتساعد على تحليلها تحليلاً علمياً"^(٥). وهي التي تزوده بالمنهج التعليمي الملائم لإيصال

(١) ينظر محمد الدرج: التدريس الهادف، كلية التربية، الرباط، ١٩٩١، ص ٢٨.

(٢) نصر الدين سمار: المنهج التربوي وانعكاساته على اتجاه المراهقين، رسالة ماجستير، معهد علم النفس وعلوم التربية، جامعة الجزائر، ١٩٩٣ / ١٩٩٤، ص ١٧.

(٣) سبيرز هارلد: المعلم والمنهج، ترجمة أحمد أبي العباس وسعد ديار، دار النهضة العربية، مصر، د - ت، ص ٢١.

(٤) وإن من أهم الأسباب المسهمة في خلق أزمة النحو في المجال التربوي التعليمي قصور المعلم في فهم وظيفة القواعد وعدم وضوح الأهداف المتوخاة من تدريسها.

(٥) ينظر د. ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥، ص ٩.

عناصرها^(١). قال ابن خلدون: "وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة"^(٢) و حصول الملكة"^(٣). فمدرس النحو رسالته خطيرة، أداؤها على أكمل وجه يقتضي منه أن يكون ذا كفاية من الناحية العلمية ومن الناحية اللسانية^(٤)، يجمع بين التكوين اللساني الكافي المناسب للمرحلة التعليمية المنوط به تدريس أبنائها، والتكوين في صناعة تعليم اللغات الذي يساعده على إنجاز الفعل التعليمي بكفاية ونجاعة و فاعلية^(٥).

فالمدرس الجيد الذي له دراية بمعارف عصره و ماضيه فيما يتعلق بتخصصه من شأنه أن يسد الثغرات المختلفة، سواء أتعلقت تلك الثغرات بالأهداف، أم بالمحتوى، أم بالطريقة^(٦)، ذلك أن التأكيد على الإنتاج الفعال في تعلم اللغة لا يعزى إلى التطورات في علم اللغة النظري الحديث فقط، وإنما يعود إلى التطورات المسجلة في نظرية التعلم"^(٧) لذلك لا ينبغي أبداً أن يسند تدريس هذا النشاط الخطير إلى غير المعلمين المختصين به الجاهلين به و بأساليبه، لأن ذلك أدعى إلى حصول النفور منهم من قبل المتعلمين حين يقفون على جهلهم^(٨)، ثم إن تسجيل القصور في فهمهم وظيفة القواعد، وعدم وضوح الأهداف من تدريسها^(٩) سيؤدي إلى سوء استغلالها.

(١) ينظر الدكتور جابر عبد الحميد: التدريس و التعلم، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٢) يقصد بالصناعة: تعليم القواعد النحوية.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ٢ / ٤٨٧.

(٤) ينظر محمد الدرج: التدريس الهادف، ص ٢٨.

(٥) ينظر د. بشير إبرير: (إستراتيجية التبليغ في تدريس النحو) أعمال ندوة تيسير النحو، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ٢٠٠١، ص ٤٨٣.

(٦) ينظر د. بشير إبرير: (إستراتيجية التبليغ في تدريس النحو)، أعمال ندوة تيسير النحو، ص ٥٠٣.

(٧) عبد الكريم طه: (علم اللغة و تدريس اللغات)، مجلة كلية الآداب، عدد ٥، ١٩٧٤، ص ٢٠٤.

(٨) ابن حويلي الأخضر مدني: (الأثر التربوي و النفسي لكتاب النحو المدرسي في المرحلة الأولى)، أعمال ندوة تيسير النحو، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ٢٠٠١، ص ٤٥٢.

(٩) ابن خلدون: المقدمة ٢ / ٤٨٢.

وقد أرجع بعضهم مشكلات النحو إلى المصدر العلمي و القدرة المهنية^(١) اللذين يكشفان افتقار المعلم إلى المعلومات الكافية الدقيقة عن اللغة وطبيعتها ووظيفتها وطرائق تدريسها. واللسانيات التربوية تحصر الحاجة المسيسة إلى مدرس النحو في شروط ثلاثة:

- ١ - الملكة اللغوية الأصيلة المنوط بإكسابها متعلميه .
- ٢ - أدنى كمية من المعلومات عن اللغة المراد تعليمها.
- ٣ - ملكة تعليم اللغة^(٢) التي تجعله يبحث عن طريقة فاعلة تمكنه من معرفة كيفية إكساب متعلميه الملكة اللغوية الكافية^(٣).

و حين نتصفح منهاج اللغة العربية و آدابها للتعليم الثانوي نجد أن مطالبه البيداغوجية الملحة قوامها الأستاذ بكفايته المهنية، و قدراته المعرفية التي تمكنه من فهم طبيعة العملية التربوية، على نحو يدرك فيه أن المتعلم هو محور هذه العملية.

ومن ثم ضرورة مراعاة حاجاته و ميوله، باختيار الطرائق الشيطة التي تستثمر الوسائل المتاحة خير استثمار، بغية تلبية تلك الحاجات، وصولاً بهذا المتعلم في نهاية المرحلة الثانوية إلى الملمح الذي ينبغي أن يكون عليه^(٤). لذلك فإن ثمة جملة من الشروط المتعلقة بهذا الأستاذ. هذه الشروط مجتمعة هي ما أدرجناه تحت عنوان ما الذي ينبغي لمدرس النحو أن يتسلح به؟ وماذا؟^(٥).

(١) تدريس اللغة العربية بالمرحلة الابتدائية ، أسسه، تطبيقاته، دار القلم، الكويت ط ٤، ١٩٨٣، ص ١٠٢.

(٢) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، مجلة اللسانيات، معهد العلوم اللسانية والصوتية، الجزائر، العدد ٤، ١٩٧٤، ص ٤١، ٤٢.

وينظر د. عبد الرحمن حاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، المرجع نفسه، ص ٥٣ - ٥٧.

(٣) منهاج اللغة العربية و آدابها في التعليم الثانوي العام، ١٩٩٥، ص ٩.

(٤) د. عبد الرحمن حاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، المرجع نفسه، ص ١٨.

(٥) د. المسدي عبد السلام: اللسانيات و أسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص ١٣٥.

هناك أمر ذو بال لا يجوز لمدرس النحو العربي - على وجه الخصوص - أن يجهله، وهو أن يكون هذا المدرس على قدر كاف من الاطلاع على ما جد في اللسانيات الحديثة^(١). فأردنا أن يكون القدر الكافي من الاطلاع موصولاً أساساً بالكفاية اللغوية، و التبليغية التي هو منوط بإكسابها متعلميه، انطلاقاً من أن فروع اللغة جميعها متضافرة و متعاونة على تحقيق الغرض الأصلي منها، وهو إقدار المتعلم على أن يستخدم اللغة استخداماً صحيحاً للإفهام و الفهم^(٢).

أولاً - الكفاية:

ولما كانت الكفاية اللغوية أساسية، لها هذه الدرجة من الأهمية - باعتبار أن الهدف الجوهرى من نشاط^(٣) النحو هو حصول هذه الكفاية لدى التلميذ - لم يكن مناص لأستاذ اللغة العربية من أن يكون على دراية بها. فما مفهوم هذه الكفاية اللغوية؟

قبل التحدث عن هذه الكفاية نلفت الانتباه إلى أن " تشومسكي " في نظريته إلى اللغة رفض الوصف القائم على الملاحظة الشكلية للبحث اللغوي. إذ إن البحث اللغوي - حسب رأيه - لا ينبغي أن يكون وصفاً لما قاله المتكلمون، وإنما يكون شرحاً و تعليلاً للعمليات الذهنية^(٤).

ونظرية " تشومسكي " التوليدية و التحويلية " عرجت بالبحث اللساني من منهج يتوخى معطيات علم النفس السلوكي - الذي يرى أن اللغة عادات تكتسب بالتكرار عبر آليات العلاقة بين المثير و الاستجابة - إلى منهج عقلي همه اكتشاف

(١) إبراهيم عبد العليم: الموجه الفنى لمدرسي اللغة العربية، ص ٥٣.

(٢) المنهاج التربوي الجزائري آثر أن يستعمل مصطلح " نشاط " بدلاً عن المادة، فاللغة العربية تنظم أنشطة كثيرة منها نشاط النحو.

(٣) د. مازن الوعر: (النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية و التوليدية)، مجلة اللسانيات، معهد العلوم اللسانية و الصوتية، العدد ٦، ١٩٨٢، ص ٢٥.

(٤) د. سام عمار: (نظريات تشومسكي اللغوية و الإفادة من تطبيقاتها)، مجلة الموقف الأدبي، معهد اللغة و الأدب العربي، دمشق، العدد ١٩، ١٩٨٥، ص ٣٨.

القدرة الكامنة وراء البحث اللساني من أجل تحليله و تفسيره. بدلاً عن وصفه وصفاً شكلياً سطحياً^(١).

و الكفاية اللغوية كما يفسرها " تشومسكي " هي معرفة المتكلم المستمع المثالي للغة". أي القدرة التي يمتلكها المتكلم المستمع المثالي للغة، و التي تخول له إنتاج عدد لا حصر له من جمل لغة بيئته الأولى^(٢) اعتماداً على الإمكانيات الكامنة عنده، حتى إنه يستطيع بالمخزن الذي لديه، الذي يسميه " السكاكي " (خزانة الصور)، أن يفهم جملاً ووحداتٍ إسناديةٍ لم يسبق له أن سمعها أو قرأها^(٣). و هي المعرفة التي لكل من المتكلم و المستمع^(٤). وهذه المعرفة متمثلة في مجموعة قواعد لغوية عامة متشكلة في ذهن الإنسان، وهي التي تمكنه من اكتساب أية لغة بشرية على وجه الأرض^(٥).

وذو الكفاية اللغوية حين يتكلم أو يستمع أو يكتب أو يقرأ يسجل أن نظام لغته الذي يمتلكه هو الذي يمكنه من القدرة على إنتاج وفهم البنى والتركيب اللامتناهية دون أن يكون قد سمعها أو عرفها من قبل. فهي القدرة على الفهم، ممثلاً في فك الرموز اللغوية، والإفهام ممثلاً في تركيب تلك الرموز.

"والمفهم لك والمفهم عنك شريكان في الفضل"^(٦). و هذه الكفاية بمثابة ملكة

(٢) "يسميا بعضهم" لغة الأم " لأنها هي اللغة التي يفتح بها الطفل عقدة لسانه منذ ظهوره لدنيا الناس، وهي أول ما يصغي إليه عندما تناغيه أمه (...). لأنها اللغة التي يتحدث بها الطفل مع أمه" د. بن نعمان أحمد (علاقة اللغة الأم بالثقافة القومية)، مجلة التربية، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، إبريل ١٩٨٢، العدد ٢، ص ٣٠.

(٣) Noom Chomsky: Principes de phonologie Generative، Trad de Pierre، ed ، seuil ، paris ، 1971، P 26 .

(١)، (٤) أحمد حساني: (البنية التركيبية في رحاب اللسانيات التوليدية التواصلية)، مجلة تجليات الحدائنة، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة وهران، العدد الأول، ١٩٩٢، ص ٧٤.

(٥) ينظر إبراهيم عاجي: الإبداع في اللغة حول الجديد عند تشومسكي، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ١٣، ص ١٦٨.

(٦) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت، ٣/ ٤٥.

لا شعورية^(١) تجسد العملية الآنية التي يؤديها مستعمل اللغة بهدف صياغة تراكيبه وتفهمها تبعاً لتنظيم القواعد الضمنية الذي يربط بين الأصوات اللغوية وما تحمله من معانٍ^(٢). وهذه الكفاية اللغوية تخول للمستمع بها إنتاج عدد لا حصر له من تراكيب إسنادية، وكذا فهم وتفسير هذه التراكيب الإسنادية اعتماداً على الإمكانيات الكافية عنده، ذلك أن وراء السلوك اللغوي، ممثلاً في الأداء الذي يمكن ملاحظته، كفاية لغوية مجردة ثابتة توجه هذا السلوك^(٣).

وتعد "الكفاية اللغوية أي معرفة اللغة بمثابة تنظيم مجرد"^(٤) مكون من قواعد تحدد الشكل والمعنى الأصلي^(٥) لعدد غير متناه من الجمل^(٦) الممكنة^(٧)، وكذا لعدد من الصيغ الصرفية المحولة^(٨).

وهي القدرة على إنتاج التراكيب الإسنادية و تفهمها في عملية التعاطي مع اللغة في أثناء التواصل، سواء أكانت هذه التراكيب الإسنادية وحدات إسنادية أم جملاً، وسواء أكانت توليدية أم تحويلية؛ إذ يشير مصطلح الكفاية اللغوية إلى قدرة

(١) والذي يطمأن إليه هو أن الكفاية اللغوية قبل اكتسابها تكون شعورية أما بعد اكتسابها فتكون لا شعورية. قال ابن خلدون "ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي، ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادي الرأي أنها جيلة وطبع". ابن خلدون: المقدمة، ٤١٣٩٩.

(٢) ينظر د. ميشال زكريا: الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، ص ٣٤.

(٣) ينظر د. ميشال زكريا: المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٤) ثنائية الكفاية و الأداء تشير إلى أن الأداء سلوك ظاهر خارجي و الكفاية أمر مجرد ضمن داخلي.

(٥) يقصد بالمعنى الأصلي: المعنى العميق المستمد من البنية العميقة للتركيب الإسنادي للوحدة الإسنادية أو الجملة أو الكلمة المحولة التي لم تأت على أصلها.

(٦) من الجمل أو الوحدات الإسنادية الوظيفية.

(٧) Noom Chomsky: langage and Mind, trad, F.R, ed, Seuil, Paris, 1973, P 106, 107.

(٨) نقصد بالصيغ الصرفية المحولة المشتقات أو المصادر التي وقع فيها إعلال أو إبدال.

المتكلم^(١) المستمع المثالي على أن يجمع بين إدراك العلاقة التي بين الأصوات اللغوية والمعاني المنطوية عليها التي تأتي في تناسق وثيق مع قواعد لغته^(٢).

وأساس ذلك أن اللسان أداة، وتعني الجانب الأول للغة و هو الصوت إلى جانب المفهوم للتبليغ والتخاطب^(٣)، لأن "مما يعلم ببداءة العقل أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم و مقصوده"^(٤). وإنه من الواضح جداً أن للجمل^(٥) معنىً خاصاً تحدده القاعدة اللغوية^(٦)، و إن كل من يتملك لغة معينة قد اكتسب في ذاته و بصورة ما تنظيم قواعد تحدد الشكل الصوتي للجمل و محتواها الدلالي الخاص^(٧). و الجرجاني لا يقصد بمعاني النحو القواعد المسطرة في كتب النحو، لأن المتكلم قد يجهل جهلاً كلياً القواعد العلمية للنحو، ولكنه يمارس النحو أثناء العملية التواصلية، و يعني بالقواعد النحوية هنا القواعد التجريدية الكامنة في ذهن كل من المتكلم والمستمع، والي بواسطتها ينتج الأول الكلام، وبها يفك الثاني رموزه^(٨)، أي يفهم هذا الكلام. والكفاية هي معرفة المتخاطبين لأوضاع اللغة التي يتخاطبان بها، وهي معرفة عملية غير نظرية ارتسمت صورها ورسخت في نظامهما العصبي المركزي منه و الخارجى على نحو استطاع فيه المتخاطبان أن يحكما أفعالهما. فهي بالنسبة إلى المتكلم أو المبلغ تلك

(١) يقصد به الممارس و المستعمل للغة مرسلاً كان أم متلقياً.

(٢) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (مدخل إلى علم اللسان الحديث)، مجلة اللسانيات، عدد ١، ١٩٧، ص ٣٢.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٤) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣٤٧.

(٥) يقصد بالجميل التراكيب الإنشائية سواء أكانت مستقلة معنى و مبنى أم لا.

(٦) لأن القواعد هي التنظيم المحرك لآلية التعلم و الكامن ضمن الكفاية اللغوية. ينظر ميشال زكريا: الألسنية التحويلية والتوليدية، ص ٣٤، ٣٥.

(٧) ينظر د. ميشال زكريا: الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية، ص ٣٦.

(٨) ينظر عبد الله الجهاد: (النموذج اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني)، جذور التراث، العدد ٦، ٢٠٠١، ص ٣٣٠.

العمليات الخفية التي تحول أغراضه إلى سياق منظم من الألفاظ الدالة على هذه الأغراض. وهي بالنسبة إلى المخاطب تلك العمليات التي تترجم تلك الألفاظ وتحمّلها على المعاني المقصودة منها^(١). وتشومسكي يركز على الإبداع الخاص بالجملة أو الوحدات الإسنادية انطلاقاً من المعرفة الواعية للقواعد الموظفة باستمرار من طرف مستعمل اللغة حين تكلمه أو كتابته أو قراءته^(٢)، لأن التيار التوليدي التحويلي يركز على المستويات العليا في الكلام، التي تتمثل في الجملة والوحدات الإسنادية^(٣) وبخاصة تلك التي وقع فيها تحويل^(٤).

الكفاية التبليغية:

وبعضهم يوسع مفهوم تشومسكي للكفاية اللغوية بالحديث عن الكفاية التبليغية التواصلية التي تعني "القدرة على استعمال اللغة في مختلف الأحوال الخطابية لشتى الأغراض"^(٥)، لأن هذه الكفاية التبليغية تؤخذ من وسائط عديدة معرفية ونفسية واجتماعية وثقافية بناء على البنية الاجتماعية التي يعيش فيها المتكلم^(٦). ومن ثم تساعد هذا المتكلم على تنوع صور^(٧) الخطاب بما يلائم

(١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، المرجع نفسه، ص ٢١.

(٢) Noom Chomsky: Principes de phonologie Generative, ed. du , seuil , Larousse , paris , 1971, P 26 .

(٣) عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب تونس، ١٩٨١، ص ١٩.

(٤) ينظر بومعزة رابح: المرجع السابق، مفهوم التحويل في الجملة أو الوحدة الإسنادية، ص ٥٦٤ وما بعدها.

(٥) د. عبد الرحمن الحاج صالح: الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية، ندوة تعليم اللغة العربية، ١٩٨٤، ص ١٠.

(٦) ينظر بشير إبرير: النظرية التبليغية في تدريس النصوص بالمدارس الثانوية الجزائرية، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، ٢٠٠٠، ص ٤٨٥.

(٧) سواء أكانت صور خطاب توليدية أم تحويلية.

المقام^(١) ويعبر عن مختلف الأغراض. والكفاية التبليغية مهارة يكتسبها المتعلم ليحكم بها أفعاله الكلامية (أداءه) على نحو تكون فيه صفة راسخة تمكنه من ترجمة وتوظيف تلك القدرة^(٢)، وهي تتعدى الكفاية اللسانية التي تنحصر في معرفة النظام النحوي والصرفي المسهم في استخدام التركيب السليم للجمل أو الوحدات الإسنادية الوظيفية^(٣)، لأن من يمتلك هذه القدرة^(٤) فقط لا يستطيع استعمال اللغة في مختلف المقامات والأوضاع، ولا يعلم ما تقتضيه أحوال الخطابات في ميادين الحياة اليومية^(٥). وهذه الملكة أو الكفاية التبليغية من شأنها إكساب المتعلم الملكة التواصلية، وتعني امتلاكه قدرًا معينًا من قواعد لغة ما على نحو يمكنه - سواء أكان من أبناء هذه اللغة أم من غيرهم - من الاتصال المثمر مع أبنائها فهمًا وإفهامًا بما يتفق والأعراف اللغوية السائدة في الجماعة اللغوية^(٦). وبذلك تعني هذه الكفاية القدرة على تقبل الخطاب وتبليغه من خلال تشكيل رموزه وتفكيكها بحسب ما تقتضي ظروف التخاطب. سواء أكان الخطاب شفاهيا أم مكتوبًا. ذلك أن الملكة التبليغية تركز على ظروف التبليغ اللغوي وشروطه. وهي تهدف إلى تحقيق النجاعة التبليغية^(٧) وهو ما يسجل فقدانه في حياة تعليمنا الثانوي، الذي يلاحظ أن التبليغ في نموذج التعليمي خالٍ من التفاعلات بين المعلم والمتعلم^(٨).

(١) ينظر د. علي آيت أوتشان: اللسانيات والبيداغوجيا، نموذج النحو الوظيفي، الأسس المعرفية و الديداكتيكية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨، ص ١٠٢، ١٠١.

(٢) Dell. hymes vers la compitance de communion, Armand, colin, Paris 84 P.2.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: المرجع السابق، ص ١٠.

(٤) يقصد بالقدرة الملكة اللسانية.

(٥) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية، ندوة تعليم اللغة العربية، المرجع نفسه، ص ١٠.

(٦) ينظر جميلة حمودي: تعلم قواعد اللغة العربية في المدرسة الأساسية، رسالة ماجستير، معهد اللغة العربية جامعة الجزائر، ١٩٩٤، ص ١٢.

(٧) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: علم تدريس اللغات والبحث العلمي في منهجية الدرس اللغوي، نقلًا عن حسن خميس سعيد الملقح: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ٢٥٠.

(٨) ينظر محمد الدرج: التدريس الهادف، ص ٦٠ وما بعدها.

وأساس ذلك أن ما يحدثه المتعلم من أفعال لا يتم بشكل منعزل، وإنما يحدث في حال خطاب معينة، ويوجه إلى مخاطب معين، ولذلك دخل كبير في موقف المتعلم وسلوكه اللغوي وتأثيره في تعليم اللغة^(١). وبناء على ذلك وجب استثمار أحوال الخطاب في العملية التعليمية باعتبار أنها تقنية تمكن من التبليغ الفاعل في مختلف أحوال الخطاب وصولاً إلى تمكين المتعلم من معرفة استعمال الأحاديث حسب مقتضيات التبليغ^(٢)، وكذا استثمار نظرية التحدث التي اعتنت بأحوال الحديث، وهي إنجازات تحليل الخطاب التي استفاد منها الغربيون في تعليم لغاتهم في جميع المستويات بما يجعلهم يكتفون صيغاً خطابية حسب أحوال الخطاب ومقاماته اللازمة^(٣). ولما كانت الأفعال الكلامية تتعلق بممارسة الكلام في مختلف ظروفه وأحواله، فإنه ينبغي للمعلم أن يهيئ للمتعلمين الظروف الملائمة التي تدفعهم إلى إحداث أفعال كلامية تتعلق بمحتويات المواد التي يدرسونها^(٤). فالكفاية إذن هي حقيقة عقلية كامنة وراء الأداء الكلامي^(٥). فما مفهوم الأداء الكلامي ؟

الأداء الكلامي أو التأدية :

إذا كانت الكفاية هي امتلاك المتكلم والسامع القدرة على إنتاج عدد لا حصر له من الجمل والوحدات الإسنادية - من عدد محدود من الفونيمات الصوتية، والقدرة على الحكم بصحة هذه التراكيب الإسنادية^(٦) من وجهة نظر نحوية تركيبية، ثم القدرة على الربط بين الأصوات المنتجة وتجميعها في مورفيمات تنتظم

-
- (١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: علم تدريس اللغات والبحث العلمي، المرجع السابق، ص ٢٥٠.
 - (٢) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: علم تدريس اللغات والبحث العلمي، المرجع نفسه، ص ٢٥٠.
 - (٣) ينظر بشير إبرير: (إستراتيجية التبليغ في تدريس النحو، أعمال ندوة تيسير النحو)، ص ٤٩٣.
 - (٤) ينظر أوز فلد كرو: نظرية الأفعال الكلامية من سوسير إلى فلسفة اللغة، مجلة العرب و الفكر العالمي، عدد ١٠، ١٩٩٠، ص ١١٤ وما بعدها. نقلاً عن بشير إبرير: المرجع نفسه، ص ٤٩٣.
 - (٥) ينظر د. ميشال زكريا: الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥، ص ١١٨.
 - (٦) سواء أكانت هذه التراكيب الإسنادية جملاً أم وحدات إسنادية وظيفية، وسواء أكانت اسمية أم فعلية وسواء أكانت مثبتة أم منفية، بسيطة أم مركبة.

في جمل^(١)، يتمكن من خلالها مستعمل اللغة من إنتاج وتأويل تراكيب إسنادية ذات بنيات متنوعة ومعقدة في عدد كبير من المواقف التواصلية المختلفة. وهي تقابل القالب النحوي الذي يعني الانتحاء. وكل ذلك يتم في عمليات ذهنية داخلية^(٢) - إذا كانت كذلك فإن الأداء الكلامي هو الاستعمال الفعلي للغة في الظروف المحسوسة^(٣)، أي هو الاستخدام اللغوي عند فرد بعينه. والأداء بمفهوم "تشومسكي" هو تحقيق اللغة وتنفيذها فعلياً، أي نقلها إلى حيز الاستعمال الشفاهي أو الكتابي. فهو يتمثل في استعمال اللغة وإنتاج جمل تبدو في فونيات ومورفيات تنظم في تراكيب إسنادية خاضعة للقوانين اللغوية المسؤولة عن تنظيمها. فتوظيف الكفاية اللغوية عندما تنتج أو نفهم جملاً أو وحدات إسنادية وظيفية^(٤) من خلال صيغ ذات دلالات مستمدة من السياق يشكل الأداء اللغوي^(٥). وعليه فالأداء الكلامي هو إتقان اللغة في وقت من الأوقات في عملية خطابية^(٦)، أي هو الاستعمال الآني الفعلي للغة ضمن سياق معين. وهذا الاستعمال تقوده الكفاية اللغوية الذي هو انعكاس مباشر لها^(٧).

فإذا كانت الكفاية اللغوية هي الامتلاك للآلية اللغوية، فإن الأداء الكلامي هو الحصيلة لعمل هذه الآلية، لأن اللغة في ظل النظرية التوليدية التحويلية هي مسار عقلي دينامي^(٨). وإذا كان "ابن جني" يرى أن القدامى قد طبعوا على نظام اللغة

(١) في جمل أو وحدات إسنادية وظيفية.

(٢) ينظر خليل عبد القادر مرعي: أساليب الجملة، ص ٥٨.

(٣) Chomsky: Aspects de la theoy syntaxique، Trad، de Jean، claude، ed، de seuil، paris، 1971، p 13.

(٤) ينظر رابح بومعزة: المرجع السابق، مفهوم الوحدة الإسنادية الوظيفية، ص ٨٥.

(٥) ينظر سام عمار: (نظرية تشومسكي اللغوية والإفادة من تطبيقاتها)، مجلة الموقف الأدبي، ص ٣٨.

(٦) ينظر أحمد حساني: (البنية التركيبية في رحاب اللسانيات التوليدية التواصلية)، تجليات الحداثة، ص ٦٩.

(٧) ينظر د. ميشال زكريا: الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، ص ٣٣، ٣٢.

(٨) ينظر د. ميشال زكريا: المرجع نفسه، ص ٣٤، ٣٥.

وعلله، أي على الكفاية اللغوية التي يمتلكها المستعمل المثالي للسان العربي من غير وضع منهم لعلله، ولا لقصد من القصود المنسوبة إليهم في قوانين هذا اللسان وأغراضه، حيث إن الأخير منهم هذا على منهج الأول فقال به^(١)، أي ممارستهم اللغة فعلياً، و كان أداؤهم لها سليماً نحوياً و دلالياً، فإن التعويل على الأداء وحده دون الاستعانة بالكفاية اللغوية كان يمكن أن يكون مقبولاً لو كان المتعلم موجوداً ضمن مجتمع يتكلم ويمارس هذه اللغة. و في هذه الحال لا يشترط أن يكون التعلم ناجماً عن وعي و دراية^(٢) ومستنداً إلى الكفاية اللغوية. وأساس ذلك أن متعلم أية لغة عاشها يكون اكتسابه تلك اللغة بمحض وجوده في ذلك المجتمع.

كيفية الوصول إلى الكفاية والأداء:

لقد سبق أن بين لنا " ابن جني " أن النحو هو انتحاء سمت كلام العرب " الذي يقصد به كلامي وكلامك وكلام الآخرين الذي نتعامل به في حياتنا اليومية^(٣).

والنحو بمفهوم الانتحاء الذي تصوره "ابن جني" وجد لغرض تعليمي، ويعد وسيلة مساعدة للاستقامة في الأداء الفعلي للكلام، سواء أكان المتكلم أعجمياً أم عربياً ضعفت سليقته بسبب تأثير الاختلاط بالعناصر غير العربية، أم بسبب ابتعاده عن البيئة اللغوية العربية القادرة على إكسابه العادات اللغوية بين أفراد مجتمعه اللغوي المتجانس^(٤). وقد تبدت هذه النزعة التعليمية في التعريف الذي قدمه " ابن جني " للنحو حين تصوره بأنه انتحاء سمت كلام العرب^(٥). فالنحو وسيلة مسعفة

(١) ينظر ابن جني: الخصائص، ١ / ٢٣٨.

(٢) ينظر سوسير: علم اللغة العام، ترجمة يوسف عزيزو مراجعة إبراهيم مالك يوسف، الموصل، العراق، ١٩٨٨، ص ٣٣، ٣٢. و ينظر د. ميجان الرويلي: قضايا نقدية ما بعد بنية، النادي الأدبي، الرياض ١٩٩٦ ص ١٦.

(٣) ينظر د. سالم علوي: وقائع لغوية وأنظار نحوية، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٠، ص ٨٨.

(٤) ينظر الزغبلاوي: مسالك القول في النقد اللغوي، دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٨٤، ص ٦٤.

(٥) ينظر ابن جني: الخصائص، ١ / ٣٤.

تقترب من العادة اللغوية و تعود إليها في صلتها الدائمة بالأداء الفعلي للكلام من حيث كونه ممارسة تداولية^(١) و إذا كان "السيوطي" قد أوماً إلى الثنائية المنهجية المتمثلة في الوصف والقياس^(٢) حين قوله: "اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه. وأما النحوي^(٣) فشأنه أن يتصرف في ما ينقله اللغوي و يقيس عليه"^(٤)، فإن المتعلم في أدائه الكلامي يمكن تشبيهه في المدرسة السلوكية "البلومفيلدية" باللغوي الذي يقف عند حدود ما سمعه أو قرأه دون أن يتجاوزه. لكن المتعلم في المدرسة اللغوية "التشومسكية" يمكن وصفه بأنه نحوي يتصرف و يقيس على ما سمعه، لأنه لم يسمع كل الكلام. ولذلك فالأداء عنده ينبغي أن يعكس كفايته اللغوية. يقول "برونز": "لنعلم إنساناً في مادة أو علم معين، فالمسألة لا تكون في أن تجعله يملأ عقله بالنتائج"^(٥)، بل أن تعلمه أن يشارك في العملية التي تجعل في الإمكان ترسيخ المعرفة أو بناءها. إننا ندرس مادة لا لكي ننتج مكثبات صغيرة حية عن الموضوع بل لنجعل التلميذ يفكر رياضياً لنفسه، و ليشترك في عملية تحصيل المعرفة"^(٦). وقريب من هذا المعنى المثل الصيني: "لنعلم الإنسان كيف يصطاد السمك خير له من أن نقدم له ما يحتاج إليه من السمك". ذلك أن استعمالنا اللغة إنما هو

(١) ينظر أحمد حساني: (النظام النحوي العربي بين الخطاب الفلسفي والخطاب التعليمي)، أعمال ندوة تيسير النحو، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ٢٠٠١، ص ٤٠٠.

(٢) ثنائية القياس و الوصف تقابل ثنائية الكفاية و الأداء إلا أن البنويين يركزون على الأداء لأنه هو الذي يقبل الوصف و الملاحظة المنسجمين مع الدراسة العلمية الموضوعية من وجهة نظرهم.

(٣) والنحوي من أمثال الخليل و تلاميذه المعتمدين على القياس يمثل المنتحي سمت كلام العرب الذي ينبغي له أن لا يقف عند حدود المثل الذي وصل إليه، بل يقيس عليه عددًا لا متناهياً من الأمثلة.

(٤) السيوطي: المزهري في علوم اللغة، ٨٧ / ١.

(٥) جابر عبد الحميد: التعلم وتكنولوجيا التعليم، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٢، ص ٢٦٢.

(٦) البنويون السلوكيون ينظرون إلى المتعلم على أنه وعاء يملأ بالصيغ و التراكيب التي تلائم مستواه. ولكي يقال: إنه تعلم اللغة، ينبغي له أن يخزن هذه المعارف و يسترجعها عند الحاجة وفق آلية المثير والاستجابة.

استعمال إبداعى يهدف إلى أن نتواصل بجمل لم يسبق لنا سماعها^(١). لأن النحويين العرب يجعلون الأصل المنطلقة " منه التحويلات هو أقل ما يمكن أن يتكلم به مفرداً^(٢). و ينظر ما هي العناصر التي يمكن أن تدخل ذلك دون أن تخرجه عن كونه كلاماً واحداً^(٣)". و تركز النظرية التحويلية على الإبداعية في اللغة لأنها الخصيصة التي تتميز بها اللغة التي تعد نظاماً متفتحاً غير مغلق تتجلى فيه قدرة مستعمل اللغة على إنتاج وفهم عدد غير متناه من الجمل التي لم يسبق له سماعها^(٤). وثمة فرق بين مستويين من مستوى الأداء اللغوي: مستوى الممارسة الفعلية للغة، ومستوى التمكن من قواعدها. وإن الشكوى من تدني مستوى الأداء اللغوي ظاهرة قديمة و ليست جديدة لدى متعلمينا. و ما أبعد الشقة بين مستوى الأداء اللغوي ممثلاً في الفهم الجيد للتركيب و البنى الإفرادية ، والإفهام الواضح باستعمال هذه التراكيب و البنى للتعبير عما يخالج النفوس من آراء، وبين الإحاطة بقواعد الإعراب. أي أن ثمة فرقاً بين الكفاية اللسانية و القدرة على توظيفها، وصناعة العربية.

والضعف لا يعزى إلى جانب واحد. لكن الجانب الأخطر يكمن في عدم إتاحة فرصة للمتعلم للممارسة الفعلية للغة. يقول "هايمز" "Hymse" " لكي نتواصل مع الآخرين لا يكفيك أن تعرف اللغة ونظامها، بل أن تعرف أيضاً كيف تستعملها في سياقها الاجتماعي"^(٥). و الحديث عن ثنائية الكفاية اللغوية و الأداء الكلامي

(١) ينظر شرف الدين الراجحي و آخرون: مبادئ علم اللسانيات الحديث، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، د. ت، ص ١١٧.

(٢) يقصد بكلمة "مفرداً" جملة بسيطة أو وحدة إسنادية وظيفية بسيطة توليدية. سواء أكانت فعلية أم اسمية.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنية اختلافها النظري والمنهجي)، مجلة الأدب، جامعة قسنطينة، ص ٢٦.

(٤) ينظر د. ميشال زكريا: الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية، ص ٢٩.

(٥) bachman.C : En language et cominations sociales, paris, 1981, P13.

يبين لنا أن ثمة نوعين من المعرفة النحوية: المعرفة النحوية العفوية^(١) التي تكون فيها القواعد ضمنية تخلو من العرض المباشر لأية قوانين، و يقابلها المعرفة النحوية الواعية أو المقصودة. "وهي المعرفة التي يركز عليها التعليم المنهج (...). ويقصد إليها قصدًا بالتخطيط والدرس والشرح والتعريف والاختبار والتقويم"^(٢). وفيها تكون القواعد التي يقوم عليها بناء الجمل والوحدات الإسنادية الوظيفية صريحة مباشرة. ويرى بعض الدارسين أن القواعد الضمنية والصريحة ينبغي لهما أن يسيرا جنبًا إلى جنب حين تعليم اللغات^(٣). والنظرية السلوكية - توجيًا للاقتصاد في الوقت والجهد - تكتفي بالمعرفة الضمنية^(٤) أي المعرفة النحوية العفوية التي تحصل من الممارسة المستمرة للغة من خلال النشاط التبليغي للكلام دون أدنى تأملٍ أو جهدٍ واعٍ، إلى أن يترسخ نحو تلك اللغة في ذهن المتكلم الممارس، فتصير ملكة لديه يتسنى له بواسطتها إنشاء الكلام وفهمه. فهي معرفة خاصة بمتكلمي اللغة ومستعمليها. وتلك الملكة تتأتى على نحو تدريجي ذاتي يتوصل به المتكلم إلى امتلاك وإحكام نظام اللغة فتصبح كأنها طبيعة أو جبلة لديه على نحو يصير فيه مالكًا ناصيتها كأنه سَلِيقِيٌّ لا يَحْتَمِلُ لأجل مراعاتها في كلامه الكلف والمشاق مثلما قال ابن جني^(٥). وهذه المعرفة النحوية العفوية لا تحصل للمتعلم بمعرفته القوانين العلمية للغة، وإنما تحصل له بممارسته كلام العرب وتكراره، و التفتن لخواص تراكيبه على نحو يصل به إلى التمكن من تمييز صواب الكلام من خطئه.

(١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، مجلة اللسانيات، ص ٢١.

(٢) ينظر ابن حويلي الأخضر مدني: (الأثر التربوي والنفسي لكتاب النحو المدرسي في المرحلة الأولى، أعمال ندوة تيسير النحو)، ص ٤٥٥.

(٣) ينظر نايف خرماة: اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت، ١٩٨٨، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٤) ينظر إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، ص ١.

(٥) ينظر ابن جني: الخصائص ١ / ٤٦، ٤٥.

فيعرف ما هو من سنن كلام العرب و ما هو حائد منه عن سمت المتكلمين و مجاريمهم في كلامه، و ذلك بانتحاء سمت كلامهم^(١) بالمحاكاة والنسج على منوالهم. وأساس ذلك أن القواعد المنتحاة أو المعرفة العفوية هي الواقع الأوسع من تلك القواعد التي يحاول النحويون واللسانياتيون استنباطها وصياغتها انطلاقاً من لغة المتكلم.

ويذهب بعضهم إلى أن تلك المعرفة النحوية ذات طابع تعليمي لأنها تنطوي على آليات موافقة للقواعد الاستعمالية الخاصة بجماعة ما^(٢) فالتكلم يجري في كلامه على قواعد و نظم يصدر عنها و لا يتجاوز سننها و إن لم يفتن لها^(٣). والبنويون يرون أن المتكلم يحاكي ويكرر جملاً وحدات إسنادية وظيفية جاهزة بأعيانها.

و يذهب "إبراهيم عاجي" حين شرحه نظرية البنويين في تعليم اللغة إلى أنه لا يمكن أن تكون مسألة تعلم اللغة عند البنويين ذات فائدة إذا لم يهدف هذا التعلم إلى خلق آليات لغوية لدى المتعلم الذي لا يحتاج إلى دراسة قواعد اللغة دراسة نظرية بقدر حاجته الميسسة " إلى تعلم جمل جاهزة يمكن أن تشكل ردّ فعله في موقف معيّن. إنه يحتاج مثلاً إلى معرفة ما يجب قوله بـبلغة ما إذا التقى بأساتذته أو إذا دخل دكان بقال، أو إذا أراد إظهار إعجابه بشخص ما (...). و عملية التعلم يجب أن توفر له هذه المعرفة، و ذلك عن طريق التكرار و عن طريق وضعه في مواقف شبه طبيعية لاختبار ردود أفعاله"^(٤) "أليست اللغة في نهاية المطاف عبارة عن مجموعة من الجمل الجاهزة(..) يتناول الناس ما يناسبهم منها في المكان والزمان

(١) ينظر ابن خلدون: المقدمة، ٢ / ١٠٥٠.

(٢) ينظر جميلة حمودي: طريقة تعليم قواعد اللغة العربية في المدرسة الأساسية، ص ٤٧٨.

(٣) ينظر مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٥٥، ٨ / ١٤١.

(٤) إبراهيم عاجي: الإبداع في اللغة حول الحديث عند تشومسكي، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ١٩، ص ١٦٢.

المعينين"^(١)، وأساس ذلك أن اللغة عند هؤلاء البنويين إن هي إلا عادة من العادات"^(٢) وهي سلوك اجتماعي يمكن اكتسابه بشكل آلي"^(٣) بالمحاكاة للتركيب الجاهزة دون إعمال الفكر". إن حصر اللغة في جمل تتكرر دائماً بشكل آلي بجانب الحقيقة اللغة لما فيه من إغفال و تناسٍ لقدرة الإنسان على إبداع الجمل اللامتناهية بالمتناهي من النماذج. يعزز ذلك قول للأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" مفاده " أن هذه النظريات التي أطلق عليها اسم البنوية (...) كانت قد تناست أو تجاهلت جانباً هاماً من الدراسة وهو الظواهر المتعلقة بالقدرة التي منحت للإنسان على الكلام للدلالة على أي غرض كان، وبالتالي على كيفية إحداثه له و كيفية تحقيقه للعبارات"^(٤) المختلفة اللامتناهية بالمتناهي من الوحدات"^(٥). فالجمل التي يكررها الإنسان في واقعه المعيش لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جداً إذا ما قورنت بالجمل التي يؤلفها هذا الإنسان. وقبل عرض كيفية اكتساب الكفاية اللغوية " ينبغي أن نضع تمييزاً واضحاً يميز بين ملاءمة السلوك اللغوي الظروف (ظروف المتكلم)، وسيطرة المثيرات على السلوك اللغوي، فسيطرة المثيرات تعزى إلى الآلية المسيرة في حين ترد الملاءمة في تنوعها الإنساني إلى خارج إطار التفسير الميكانيكي"^(٦) أي تميز بين عملية التشريط وعملية الإبداع. فالسلوكيون ينظرون إلى اللغة على أنها مجموعة عادات صوتية يكيفها حافز البيئة. فالتكلم في رأيهم حين يشعر بشعورٍ ما تتولد عنده استجابة كلامية دون أن ترتبط تلك الاستجابة بأي شكل من أشكال

(١) إبراهيم عاجي: المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٢) ينظر عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص ١٩.

(٣) يوسف المحمود: (منهج التعليم الجماعي للغات الأجنبية وعلاقته بالتدريس)، مجلة المعرفة، عدد ١٩٩١، ٢٣٣، ص ٦.

(٤) يقصد بالعبارة الجمل والوحدات الإسنادية الوظيفية.

(٥) د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، اللسانيات، ص ٢٠.

(٦) Noom Chomsky: Langage and Mind, P21.

التفكير^(١). يقول جون ديوي: " ومن الواضح أن اكتساب العادات يرجع إلى مرونة أصلية فطرية في طبائعنا وإلى قدرتنا على تنويع وتغيير رجوعنا واستجابتنا"^(٢) والحق " إن اللغة الإنسانية تتجلى عبر مظهر استعمالها الإبداعي في القدرة الخاصة على التعبير عن أفكار متجددة، وعلى تفهم تعابير فكرية أيضًا متجددة"^(٣). فثمة تكامل بين الممارسة والكفاية اللغوية. والإبداعية في اللغة تظهر في قدرة مستعملها على إنتاج وفهم عدد غير متناهٍ من جمل اللغة وفقًا لتنظيم قواعد هي في غاية التعقيد. وبهذا التنظيم يتمكن مستعمل اللغة من إنتاج الكلام الجديد الملائم لظروف التكلم، وكذا تحليل هذا الكلام وتفسيره^(٤)، وإدراك صور تأتية. فكل إنسان يتكلم لغةً ما قادر على إنتاج جمل متجددة لم يسبق له سماعها من قبل. واستعماله للغة في مختلف المجالات التبليغية هو استعمال إبداعي في ظل مفاهيم اللسانيات التوليدية التحويلية. ولا يعني ذلك حصر الإبداع في الأعمال الخلاقة في مجال الإبداع الأدبي. " فأنا عندما أتكلم عن الإبداعية لا أقوم بأحكام تقويمية؛ فالإبداعية تدرج في استعمال اللغة الاستعمال اليومي العادي في الفعل الإنساني"^(٥). والمشتغل بتعليم اللغة لا يعتمد مبدأ التكرار لأن عملية التعلم لا تكون بمحاولة ترسيخ ما يلقن بالتكرار والمثير والاستجابة وبقية الإجراءات السلوكية، بل تكون منصبة على مساعدة المتعلم على اختيار فرضياته في جو ملائم يجعله يتمكن من بناء مختلف نظمه اللسانية.

وبالنسبة إلى واقع اللغة العربية يجب أن توضع برامج خاصة لمساعدة المتعلمين

(١) يقصد بالعبارات الجمل والوحدات الإسنادية.

(٢) د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، اللسانيات، ص ٢٠١.

(٣) Noom Chomsky: Structure Syntaxique ، tr ad ، Michel Bradeau ، ed ، seuil ، paris ، 1969 ، p 32 .

(٤) ينظر إبراهيم عاجي: الإبداع في اللغة حول الجديد عند تشومسكي، ص ١٦٥.

(٥) ينظر د. ميشال زكريا: الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية، ص ٣٢.

على تحويل القدرة أو تحويل الرموز^(١). لذلك ينبغي لمدرس النحو أن يفرق بين نوعين من التحليل للبنى والتراكيب اللغوية. فثمة بنى وتراكيب بسيطة توليدية يكتفى فيها بالوصف الظاهر الملاحظ. وهذه البنى والتراكيب يمكن تعليمها عن طريق المحاكاة كما يرى البنويون، و ثمة بنى وتراكيب تحويلية في حاجة إلى اللجوء إلى بنياتها العميقة انطلاقاً من أن ثمة نوعين من التواصل: تواصل عادي، وتواصل راقٍ. قال الزجاجي:

"وليس كل العرب يعرفون اللغة كلها غريبها وواضحها ومستعملها وشاذها، بل هم في ذلك طبقات يتفاضلون فيها. وأما اللغة الواضحة المستعملة سوى الشاذ والنادر فهم فيها شرح واحد"^(٢).

فهناك لغة عامة تدل على المفاهيم العامة. وهناك لغة خاصة ليست لكل الناس^(٣). يؤيد ذلك قول لابن خلدون مؤداه: "ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكليات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أول، ولأنه يختص بالضروري الذي تقوي الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم. ويكون تعليمه لذلك ناقصاً، ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدرج حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة، وإنما يحصل في أزمان وأجيال. إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة واحدة لا سيما الأمور الصناعية فلا بد له إذن من زمان"^(٤). فالتعلم يتعلم البنى البسيطة التي لا إعلال فيها ولا إبدال، ويتعلم التراكيب الإسنادية البسيطة والجمل التوليدية التي تأتي أركانها على أصولها من حيث الأفراد والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير،

(١) ينظر الفاسي الفهري: المعجمة والتوسيط، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ١٩٩٧، ص ٩.

(٢) الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار العروبة، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٩٢.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، اللسانيات، ص ٤.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ٣/ ١٠٥٨.

وهي التي يكون التواصل فيها بسيطاً، وبنياتها مغلقة لا تأويل فيها (الألفاظ على أقدار مدلولاتها).

والكفاية اللغوية تتطور وترتقي إلى كفاية تبليغية يضع فيها مستعمل اللغة كلامه بحسب قوانين النحو (الانتحاء) وأصوله. ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإضمار والإظهار. ذلك أن الأوضاع النحوية هي التي يتفاضل بها كلام على كلام، فليس من فضل ولا مزية إلا بحسب الموضوع^(١). وصاحب هذه الكفاية التبليغية ينبغي له أن لا يتوقف عند حدود الشكل المتمثل في الصحة النحوية^(٢)، ولكن عليه أن يغوص في أعماق التركيب. وأساس ذلك أن وجوه النظم شتى تأتي على أنحاء مختلفة^(٣).

لأن للمعنى مستويين، مستوى ظاهرياً يفهم من ظاهر اللفظ (البنية السطحية)، ومستوى باطنياً يتم التوصل إليه من النظم ومن تفاعل الألفاظ وتنظيم العلاقات بينها على النحو الذي خلقت فيه معان غير معهودة مرجعه إلى التحويل الذي عرفته تلك الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية. أي يتم التوصل إليه من خلال البنية العميقة.

ولقد كان من مبادئ اعتراض التحويليين على البنوية أن في اللغة جملاً أو وحدات إسنادية وظيفية يكون للوحدة منها غير معنى. وقد يكون سبب تعدد معنى جملة أو وحدة إسنادية ما^(٤) أن أحد عناصرها له معانٍ متعددة^(٥). ولقد أخذ هذا الاتجاه أصوله التأسيسية من الفلسفة الديكارتية التي تقوم على القدرة الإبداعية

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٦٤، ٦٥.

(٢) فالنحاة العرب الأوائل اهتموا بالجانب الشكلي والدلالي للتركيب الإسنادية، ولا أدل على ذلك من حديث سيبويه في باب الاستقامة. ينظر سيبويه: الكتاب، ١/ ٢٥.

(٣) رومان جاكسون: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الخولي ومبارك حنون، دار توبغال للنشر، المغرب، ط ١٩٨٨، ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٤) فالوحدة الإسنادية الوظيفية المحولة يختلف معناها عن المفرد الذي تقوم مقامه.

(٥) ينظر داود عبده: (التقدير و ظاهر اللفظ)، الفكر العربي، العددان، ١٩٧٩، ٨، ٩، ص ٧.

للعقل الإنساني وما توفره من آلية قادرة على توليد عدد لا يحصى من البنى اللسانية في رحاب التماثل الموجود بالقوة بين الفكر واللغة^(١).

وإن معنى تعلم قواعد لغة ما هو تعلم نظام أو تركيب أو بنى مستقلة عن التراكيب الجاهزة، بل استعمال تراكيب جديدة مبتكرة، وهذه التراكيب المبتكرة غير محددة، في حين أن الجمل التي يستند إليها الممثلة بالنسبة إليه النماذج محددة ومنتية، لأن هذا النظام من القواعد يعود عليه بالمقدرة على إنتاج جمل وفهمها دون أن يكون قد سمعها أو عرفها من قبل^(٢).

والمنوال أو القالب عند "ابن خلدون" يقابل القاعدة التي ينطلق منها صاحب هذه الكفاية حين تحليله التراكيب الإسنادية. يقول ابن خلدون: "ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى (...)" وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيها رصًا كما يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية لمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه"^(٣). فالتمتع بالكفاية اللغوية ليس مقلدًا جملاً سمعها أو حفظها، وإنما هو مبدع تراكيب لم يسمعها من قبل تبعًا للنماذج والقواعد التي يقيس عليها. وينبغي له أن لا يخرج عن سمتها حين بنائها أو تحليلها. ولعل الاحتكام إلى جوهر قضية الاكتساب اللغوي بالاهتداء إلى حقيقة الحدث اللساني التي هي ملكة تروض كما تروض اليد على النجارة أو الحدادة هو الذي

(١) ينظر د. ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية و تعليم اللغة، ص ٦٦ - ٦٨.

(٢) ينظر د. ميشال زكريا: الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية، ص ٣٢، ٣٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ٤ / ١٤١١.

قاد" ابن جني" وكل رواد أصول النحو في التراث العربي إلى التأكيد على أن اللغة هي مثالات مجردة تصاغ بالحدود والقوانين، وعنها يتولد بالقياس الكلام المنطوق والمنجز فعلاً. وبذلك يكون" تحصيل الكلام معادلة تصاعدية بين المنصوص (الأخذ)، والقياس عليه (الابتكار) ومعلوم أن اللفظ المنصوص هو معطى مسلط على الإنسان. وأما صياغة مثيله طبقاً لقواله فهو توليد ذاتي لأنه خلق وإبداع^(١). وإذن فذو الكفاية اللغوية يبني تراكيب لم يسمعها من قبل توجهه في ذلك المثل والقوال و حدود إجرائية. إذ إن" النظام الذي اكتسبه المتكلمون على شكل مثل وحدود إجرائية وهم لا يشعرون شعوراً واضحاً بوجودها وكيفية ضبطها لسلوكهم اللغوي لا يكون إلا إذا تأملوها وإن كان هذا التأمل لا يفيدهم شيئاً إذ هو مجرد استبطان إحكامهم للعمليات التي تنبني على تلك المثل^(٢).

أي أن صاحب هذه الكفاية مبدع يؤلف جملاً غير متناهية بالعدد المتناهي من القوال والنماذج التي ينسج عليها. وأساس ذلك أن المتعلم لا يكتسب هذه المهارة التركيبية^(٣) بحكايته لما يسمعه من الكلم والجمل نفسها، بل من حكايته العمليات المحدثة لها^(٤). أي باكتساب الصور لا الألفاظ والتراكيب الإسنادية نفسها. وهذا ما قد لاحظته علماءنا عن النحو^(٥). والكفاية اللغوية والتبليغية تحصل بالسماع والقياس والإبداع للمفردات والتراكيب، لأن المتعلم لا يسمع كل التراكيب و البنيان الفردية. "ومعاذ الله أن ندعي أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياساً، لكن ما أمكن ذلك فيه قلنا به ونبهنا عليه ممن نحن له متبعون وعلى مثله وأوضاعه حاذون"^(٦)، ذلك أن المتعلم لا يسمع كل التراكيب والبنى، ثم إن " ما قيس على

(١) عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) د. عبد الرحمن الحاج صالح: (مدخل إلى علم اللسان الحديث)، مجلة اللسانيات، ص ٤٠.

(٣) أو التحليلية (الفهم والإفهام).

(٤) ينظر عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، مجلة اللسانيات، ص ٥٧.

(٥) النحو هنا مصدر وليس العلم النظري الذي يشتغل به النحوي.

(٦) ينظر ابن جني: الخصائص، ٢/ ٤٢.

كلام العرب فهو من كلام العرب. ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك بأسماء كل فاعل ولا مفعول، وإنما سمعت بعضها فقست عليه غيره^(١). " وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم باللغة إلا إذا سمع صيغها الأولية في نشأته، فإن سماع تلك الصيغ ليس هو الذي يخلق المقدرة اللغوية في الإنسان، وإنما هو يقدح شرارتها فحسب. وهذا ما يفسر الطابع الخلاق في الظاهرة اللغوية وكذلك طابعها اللامحدود^(٢).

والملكة أو الكفاية التبليغية تحصل بسماع اللغة الصحيحة وتكرارها؛ حيث إن اللغة الصحيحة تتكون لدى المتعلم بسماعه النماذج الفصيحة، ومن المعاشة المستمرة للنطق بها في بيئته اللغوية. وقد كانت هذه هي حالة العربي الأولى الذي تعلم العربية على السليقة حين كان مناخه اللغوي صالحاً لتلقي هذه الملكة". فالتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيه يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستماعه يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم^(٣). وهذه المقدرة التي يكتسبها المتعلم بمعايشته أهل اللغة وباستماعه إلى كلامهم في أغراضهم المختلفة ثم محاكاتهم في النطق والأداء وفي استعمال الكلمات وفي تركيب الجمل والوحدات الإسنادية، وفي اختيار ما يناسب المقام الذي يرومه هي ما يسمى بالسليقة اللغوية. فاللغة العربية إعراباً وبلاغة لم يكن العرب يستعينون على تحصيلها عن طريق معرفتهم قوانينها المخصوصة، بل كان الصبي ينشأ بين قومه يسمعهم يتخاطبون فيحدث لأساليبهم وتراكيبهم في نفسه أثر ثم يتكرر ذلك فيزيد هذا الأثر ويزيد التكرار فتحدث له الملكة التي تجعله ينطق بالصواب وإن لم يقصد أن ينطق به. يؤيد ذلك قول للسيوطي نصه " تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهما على مر الأوقات وتؤخذ تلقناً من ملقنٍ وتؤخذ سماعاً من

(١) ابن جني: المرجع السابق، ١/ ٥٥٧.

(٢) عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص ٢٠.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ٤/ ١٢٦٨.

الرواة الثقة ذوي الصدق والأمانة"^(١). فمعرفة اللغة العربية السليمة إنما كان - كما قال ابن جني: "بالنسبة إلى الأعراي الفصيح بالقوة لا بالصنعة"^(٢). أي أنه يأخذها بدون تعلم القواعد الخاصة بها. ذلك أن المجتمع إذا كان سليماً في لغته، فإن التعلم منه يكون تلقائياً^(٣). ولما لم يكن للمتعلّم العربي الذي يريد أن يكون سليقياً مناخ صاف ومشبّ عذب ينهل منه في عصرنا هذا - حيث إن البيئة الاجتماعية المحيطة بهذا المتعلّم بعيدة عن الأداء السليم للغة العربية، فالمنهج الفطري في تعلم اللغة الفصحى قد فسد على نحو يسجل فيه أن مستعمل اللغة إذا أخطأ لا يجد من حوله من يصوب خطأه - كان من الواجب أن يصطنع لمن يروم تعلم هذه اللغة مجتمع ومناخ يمكنه من اكتساب تلك الملكة اللسانية التواصلية. هذا المجتمع هو مجتمع النصوص. "وهذا المجتمع مصطنع لا محالة، لكنه سليم اللغة، وهو مجتمع النصوص الشعرية والنثرية وحفظها حتى تنزل منزلة المحيط الاجتماعي"^(٤). ولعل هذا المناخ هو الذي يمكن أن يعوض تلاميذنا في الثانويات فقدهم وسيلة السماع الفطرية في تعلم اللغة. ويكمن في حفظ النصوص الجيدة نثراً وشعراً. سندنا في ذلك دعوة ابن خلدون التي جاء فيها "وجه التعليم لمن يتبغي هذه الملكة"^(٥) ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف (...). حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من عاش بينهم"^(٦). إذ إن من عوامل ترسيخ الملكة أو الكفاية التبليغية محاكاة النصوص الجيدة التي تقدم نموذجاً يقتدى به وينسج على منواله.

(١) ابن فارس: الصحابي في فقه اللغة، ص ٦٢.

(٢) ابن جني: الخصائص، ٣ / ٢٧٥.

(٣) ينظر د. عبد الله شريط: الفكر الخلاق عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٥، ص ٦٧١.

(٤) عبد الله شريط: الفكر الخلاق عند ابن خلدون، ص ٦٧١.

(٥) يقصد بالملكة الكفاية التبليغية البيانية.

(٦) ابن خلدون: المقدمة، ٤ / ١٢٦٨.

والقواعد النحوية التي تعد الحارس الأمين لهذه الكفاية^(١) يرى ابن خلدون أنه لكي تكون ذات منفعة ينبغي أن تدرس عن طريق النصوص الرفيعة. يستشف ذلك من قوله الذي استشهد فيه بكتاب سيبويه الذي جاء فيه " و قد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيرًا بهذه الملكة و هو قليل، (...) فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب و شواهد أشعارهم وعباراته فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة "^(٢). و بعد عرض الصور و النماذج وفهمها تأتي مرحلة النسخ على منوالها، و البناء عليها حتى يصبح من يريد الحصول على هذه الكفاية التبليغية اللسانية بمثابة الذي حصل عليها في المجتمع الفصيح الناشئ عليها، وكثرة الحفظ من الكلام الجاري على أساليب العرب مدعاة ارتسام صورة المنوال والصور المنسوجة عليها تلك التراكمات فينسج هو عليها ويكون ذلك بمنزلة من نشأ معهم. ومفهوم السمع عند ابن خلدون هو هذا المحيط الاجتماعي الذي يتم فيه الاتصال بين أفراد، فإذا طرأ انحراف على عفوية هذا المجتمع وجب استعاضته بطريقة اصطناعية تحقق الغرض الذي كان يؤديه المجتمع الفطري. وهذا يكون فيما يتعلق بمجتمعنا العربي بحفظ البليغ من الأقوال و غالطتها وممارستها والاحتكاك بها كما لو كنا نعيش فيها حياة يومية متواصلة. وكل ذلك يكون قائمًا على الحفظ، ولكن لا على الحفظ وحده، بل على الحفظ والفهم والاستعمال.

ويعد القرآن أكثر النصوص تحقيقًا للسليقة اللغوية، و لغته بالنسبة إلينا هي اللغة المنطوقة بالفعل و ينبغي لنا احتذاؤها و النسخ على منوالها فهي تمثل المناخ البديل^(٣). قال ابن خلدون "وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك"^(٤) إلا من

(١) ينظر عبد الله بن حمد الخثران: (حفظ النصوص الجيدة و أثره في ترسيخ الفصحى)، مجلة كلية اللغة العربية، الرياض، العدد السابع، ١٩٧٧، ص ٢٤٩.

(٢) ابن خلدون: المرجع نفسه. ٤ / ١٢٧.

(٣) ينظر د. رمضان عبد التواب: بحث اللغة العربية بين المدرس ومنهج التدريس، ندوة خبراء و مستولين لبحث وسائل تطوير إعداد معلم اللغة العربية، الرياض من ٥ - ١٠، مارس ١٩٧٧، ص ٤٥.

(٤) يقصد الخالية من الشواهد الفصيحة.

القوانين النحوية مجردة من أشعار العرب و كلامهم فقل ما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة^(١)". والمعلمون الأولون قد استطاعوا أن يقفوا تلامذتهم على مقومات اللسان العربي و أسرارهِ البَيانية عن طريق حفظ النصوص الجيدة و مكنوا من أن يغرسوا فيهم ما يسمى السليقة اللغوية مما جعلهم يتمثلون قوالها تمثلاً رائعاً على نحو أصبحوا فيه كأنهم عرب أقحاح على الرغم من أن كثيراً منهم لم يكونوا كذلك^(٢). ومن الخطأ تصور عملية التكلم و كأنها عملية حفظ أمثلة واستعمالها للتواصل والتعبير عن الذات كما تذهب إلى ذلك المدرسة السلوكية البنوية^(٣) التي ركزت اهتمامها الكبير على الأساليب التعليمية الميكانيكية^(٤)، وأهملت أهم خصيصة حبا الله تعالى بها الإنسان وهي العقل. فهي - أي البنوية - تدرس المستوى السطحي^(٥) للكلام، و لا تخوض في المستويات العميقة له، و لا تحاول تفسير آلية التكلم عند مستعمل اللغة^(٦). بينما نجد النحويين العرب والتحويليين يلتقون في أن ابن اللغة لا يمكن له أن يفيد عن لا وعيه الذي يصدر عنه في سليقته^(٧). لذلك نجد نسيان المحفوظ الذي يدعو إليه ابن خلدون بقوله " على الناشئ بعد الحفظ أن ينسى ما حفظ "^(٨).

ثانياً - التحويل:

لما كانت الكفاية اللسانية والتبليغية هي المنشودة من تعلم النحو الذي يعني الانتحاء، وهذه الكفاية تشمل مستويين للانتحاء: انتحاء البنى الإفرادية والتركيب

(١) ابن خلدون: المقدمة ٤ / ١٢٧٨.

(٢) ينظر عبد الله بن حمد الخثران: (حفظ النصوص الجيدة و أثره في ترسيخ الفصحى)، مجلة كلية اللغة العربية، المملكة العربية السعودية، العدد ١٩٧٧، ص ٧، ص ٢٥٠.

(٣) ينظر د. ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية و تعليم اللغة، ص ٦٠.

(٤) ينظر يوسف المحمود: (منهج التعليم الجماعي للغات الأجنبية و علاقتها بالتدريس)، مجلة المعرفة عدد ٢٣٣ ١٩٨٥، ص ٨.

(٥) لأن البنويين يهتمون فقط بما يقبل الملاحظة.

(٦) ينظر د. ميشال زكريا: المرجع نفسه، ص ٦٠.

(٧) Noom Chomsky: Aspects de la theorie syntaxique، p 25.

(٨) ابن خلدون: المقدمة، ٤ / ١٤١٦.

الإسنادية التوليدية، وانتحاء البنى والتراكيب المحولة، هذه الأخيرة التي يتواصل بها في التواصل الراقي، فإنه من الأهمية بمكان أن يكون مدرس النحو على بصيرة بالتحويل الذي يمس البنى والتراكيب الإسنادية في لغتنا العربية. فما مفهوم التحويل؟ في مبتدأ الأمر نلفت الانتباه إلى أن مفهوم التحويل - الذي اكتسب شهرة واسعة بعد ظهور مدرسة " النحو التحويلي التوليدي " على يد تشومسكي - يقترب من مفهومه في الدرس العربي القديم. وإن النظرية النحوية التي أوجدته تعاملت بمفهومه هذا في تفسير كثير من الوحدات الإسنادية الوظيفية و الجمل دون التصريح به، ولم تصرح به مصطلحاً إلا في تراكيب إسنادية محدودة^(١). فالتحويل " وسيلة للوصف والتحليل والتفسير "^(٢).

و"إن عمليات التحويل تقلب البنيات العميقة إلى بنيات ظاهرة دون أن تمس بالتحويل أي بالتأويل الدلالي (التفسير الدلالي) الذي يجري في مستوى البنيات العميقة"^(٣)، حيث " إن التركيب الباطني يعطي المعنى الأساسي للجملة"^(٤) أو الوحدة الإسنادية الوظيفية. وإن اللجوء إلى البنية العميقة في النحو العربي إنما كان لتفسير الأبنية الإفرادية و التراكيب التي تعترها بعض التحولات في سعة الكلام و نظمه، من مثل الحذف، والتقديم، والتأخير وغيرها^(٥).

ونحاة العربية هم أول من لجأ إلى التقدير^(٦)، ولم يكن تقديرهم بتأثر من المنطق الأرسطي^(٧). فالتحويل يحصل عندما يحاولون تفسير الكثير من الأبنية الملبسة التي

(١) ينظر د. محمد حاسة عبد اللطيف: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، ص ٩.

(٢) ينظر د. محمد حاسة عبد اللطيف: المرجع نفسه، ص ١١.

(٣) د. محمد الصغير بناني: المدارس اللسانية في التراث العربي في الدراسات الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٢١.

(٤) د. محمد الصغير بناني: المرجع السابق، ص ٧٩.

(٥) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (مدخل إلى علم اللسان)، مجلة اللسانيات، ص ٥٨، ٥٩.

(٦) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (مدخل إلى علم اللسان)، المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٧) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: النحو العربي و منطق أرسطو، ص ٦٧ - ٨٦، نقلاً عن حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ٢٤٩.

لم تأت على بناء نظائرها^(١) في الإعلال والإبدال^(٢). "والقول بالعامل والتقدير تعليل يتجاوز الوصف الظاهري لنظام اللغة"^(٣) والتحويل هو تحويل جملة أو وحدة إسنادية وظيفية إلى أخرى^(٤).

فينقل البنيات العميقة المولدة من أصل المعنى إلى بنيات ظاهرة على سطح الكلام^(٥). وقد اختلف النحويون في هذه التراكيب المقدرة من ناحية تحديدها، واختلفوا في طرق تحويلها إلى بنية السطح^(٦). فهو عملية تغيير تركيب لغوي إلى آخر بتطبيق قانون تحويلي واحد أو أكثر، مثل التحويل من جملة إخبارية إلى جملة استفهامية. إنه وصف العلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية^(٧). وليس التأويل والتقدير اللذان رفضهما أصحاب الاتجاه الوصفي إلا ضبطاً للعلاقة التي بين التركيب الظاهر والبنية العميقة التي هي "الأصول التي تنتظم بنية التركيب"^(٨) عند العرب^(٩).

أولاً - مفهوم التحويل في النحو العربي:

إذا كان التحويل في النحو التحويلي قائماً على أساس أن لكل تركيب إسنادي (جملة أو وحدة إسنادية وظيفية) بنيتين: إحداها عميقة والأخرى سطحية، وكان لا

(١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: المدرسة الخليلية الحديثة، نقلاً عن حسن خميس سعيد الملقب: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ٢٥٠.

(٢) ينظر ابن جني: الخصائص، ١/ ١٠٦ وينظر بومعزة رابع: تصنيف لصور الإعلال والإبدال في المشتقات الأحد عشر والمصادر، ص ٥٦ وما بعدها.

(٣) حسن خميس سعيد الملقب: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ٢٥١.

(٤) كأن تحول الوحدة الإسنادية الاسمية المؤدية وظيفة الحال إلى وحدة إسنادية مضارعية مؤدية وظيفة الحال، وسوى ذلك.

(٥) محمد الصغير بناني: المدارس اللسانية في التراث العربي في الدراسات الحديثة، ص ٨١.

(٦) ينظر د. محمد إبراهيم عبادة: الجملة العربية، دراسة لغوية نحوية، ص ١٧٢.

(٧) ينظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، ص ١١.

(٨) يقصد به التركيب المحول، لأن التركيب البسيط التوليدي لا أصل له، ولا بنية عميقة له.

(٩) ينظر برجستراستر: التطور النحوي للغة العربية، ص ٤٨.

بد من التحويل بقواعده المختلفة لكي يقوم بدور نقل البنية العميقة من عالم الفكرة المجردة إلى عالم التحقق الصوتي، فإن هذه الفكرة نفسها التي أدت إلى ضرورة التحويل قد وجدت بشكل آخر في النحو العربي. ولكن النحويين العرب - حين تناولهم فكرة المواءمة بين العمق المقدر والسطح الظاهر، وانتهوا إلى أن هناك نموذجًا أو معيارًا أو أصلًا تجريديًا في الغالب يحاول الكلام الحي تنفيذه وإخراجه إلى حيز الوجود، وخلصوا إلى أن النموذج المجرد أساس للآخر فحاسبوا الكلام المنطوق بمقياس هذا النموذج المجرد، فإنهم رأوا أن ليس هنالك لكل تركيب إسنادي بنيتان إحداهما عميقة والأخرى سطحية، وإنما التركيب الإسنادي الذي يقتضي بنيتين هو التركيب المحول الذي يكون ظاهره ملبسًا. فالجملة التوليدية أو الوحدة الإسنادية الوظيفية التوليدية (الواردة عناصرها على أصلها)^(١) لا تحتاج إلى بنية عميقة. وكذلك الصيغة الصرفية التي لم يقع فيها تحويل من نحو الإعلال والإبدال لا تحتاج إلى بنية عميقة. وإذا كان مصطلح "البنية العميقة" غير مصرح به في معالجة النحاة العرب التراكيب الإسنادية المحولة، فإن مفهومه كان حاضرًا في معالجتهم تلك، وجاء التعبير عنه بطرائق مختلفة من نحو قولهم "أصله كذا"، أو "قياسه كذا"، أو "هو على تقدير كذا"، أو "تأويله كذا"، أو "على نية كذا". وهي كلها تعني أن هناك بنية عميقة وراء البنية السطحية المحولة^(٢).

وقد استعمل مفهوم البنية العميقة في التفريق بين معاني التراكيب الإسنادية في الصيغ العربية التي يكون ظاهرها ملبسًا فكان مفهوم البنية العميقة هو المؤدي إلى إزالة هذا اللبس^(٣).

(١) فالبتدأ في الجملة التوليدية أو الوحدة الإسنادية التوليدية يأتي معرفة لا نكرة، متقدمًا على الخبر، ويأتي مفردًا لا وحدة إسنادية، ويكون مذكورًا لا محذوفًا. والفعل في الجملة الفعلية التوليدية أو الوحدة الإسنادية التوليدية يأتي متقدمًا على مرفوعه وعلى المفعول به.

(٢) ينظر د. محمد حاسة عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢١.

(٣) ينظر الأشموني: شرح الأشموني، ٢/ ١٩٥. وابن يعيش: شرح المفصل، ٢/ ٧٥.

وما يذهب إليه النحويون في باب تمييز الجملة يعد مثلاً واضحاً على التحويل الذي ورد صراحة ، حيث يقول "الأشموني" في حد تمييز الجملة :

" فتمييز الجملة رفع إبهام ما تضمنته من نسبة عامل فعلاً كان أو ما جرى مجراه من مصدر أو وصف أو اسم فعل إلى معموله من فاعل أو مفعول نحو " طاب زيدٌ نفساً " ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ^(١) . فالتمييز محول عن الفاعل والأصل ^(٢) " طابت نفس زيد " ، واشتعل شيب الرأس ^(٣) . والجملة المحول عنها ليس من اللازم أن تكون افتراضية بحثة أو تجريدية خالصة لا يتكلم بها ، بل قد تكون من الجمل التي يمكن استعمالها ولكن يعدل عنها لغرض من الأغراض المختلفة التي قد ترجع إلى الإلف وكثرة الاستعمال أو إلى الاستخفاف - كما أشار إلى ذلك سيبويه في قوله : " وذلك قولك امتلأت ماء وتفقأت شحمًا (...) وإنما أصله امتلأت من الماء وتفقأت من الشحم . فحذف هذا استخفافاً " ^(٤) . والبنية العميقة قد تتعدد ، فالجملة الفعلية " تفقأ زيد شحمًا " يرى بعضهم أن بنيتها العميقة " تفقأ شحم زيد " ، ويرى آخرون أن بنيتها العميقة " تفقأ زيد من الشحم " . وهذا الاختلاف في تحديد الجملة المحول عنها لا ترفضه النظرية اللسانية الحديثة ، بل تراه مسوغاً مقبولاً ما دام المفسر يشرح كيف اختلفت الجملة من تركيب البنية العميقة إلى البنية السطحية ^(٥) .

ومعظم خلافات النحويين كانت حول تقدير البنية العميقة أو حول القواعد التحويلية التي تحكم تحول البنية العميقة المقدرة إلى البنية السطحية ^(٦) .

(١) مريم / ٤ .

(٢) يقصد بالأصل البنية العميقة .

(٣) ينظر الأشموني : المرجع نفسه ، ٢ / ١٩٥ .

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢ / ١٨٢ .

(٥) ينظر د . محمد حماسة عبد اللطيف : من الأنماط التحويلية في النحو العربي ، ص ٢٨ .

(٦) لمزيد من الإيضاح ينظر سيبويه : الكتاب ، ٢ / ١٨٢ .

والأشموني : المرجع نفسه ، ٣ / ١٤١ و أبو على الفارسي : المسائل العسكرية ، ص ٤٥ . و ابن الأنباري : أسرار العربية ، ص ١٥ ، و نهاد الموسى : نظرية النحو العربي في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث ، ص ٤٥ - ٧٩ .

" ولم يكن النحويون مجانبين الصواب كما اتهمهم بذلك كثير من الباحثين الذين لا يقرونهم على فكرة الأصل و التفرع هذه استجابة لآراء المدرسة الوصفية التي ترى في ذلك بحثاً مبتافيزيقياً لا يعتمد على مبدأ علمي سليم. غير أن المنهج التحويلي رأى أن مسألة الأصلية و الفرعية مسألة أساسية في فهم البنية العميقة و تحويلها إلى بنية سطحية^(١). و التحويل هو إجراء الشيء على الشيء. وإجراء الشيء على الشيء هو التحويل عينه بما أن المحول و المحول له متكافئان.

وهو من وجهة نظر المنطق في الرياضيات الحديثة تكافؤ غير اندراجي، وهو هذا الذي يحصل عليه بالقياس.

والتحويل عند العرب تحويلان: تحويل يبحث به عن تكافؤ البنى (توافق البناء عند العرب) وهو الأهم، وتحويل تفسر به الشواذ^(٢) بواسطة ما يعرف بـ " نظرية الحمل"^(٣). و هو السلسلة من التحويلات التي يتوصل بها من الأصل الذي كان ينبغي أن تكون عليه هذه الشواذ إلى الصورة المستعملة للجملة أو الوحدة الإسنادية^(٤) أو الصيغة الصرفية في صيغتها النهائية^(٥). وهذه القواعد التحويلية قد تكون بالحذف، أو الاستبدال، أو بالإضافة، أو إعادة الترتيب وغير ذلك. وقد تكون هذه القوانين اختيارية، وقد تكون إجبارية. وفي كل حالة ينبغي أن يجري تطبيق القوانين التحويلية على تركيب من الممكن تحليله إلى عناصر سبق ظهورها في التركيب الباطني. أي لا بد من وجود وصف تركيبى قابل للتحليل استناداً إلى

(١) ينظر عبده الراجحي: النحو العربي و الدرس الحديث، ص ١٤٤.

(٢) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنية اختلافها النظري والمنهجي)، مجلة الآداب، جامعة قسنطينة، ص ٢٨.

(٣) ينظر رابح بومعزة: تصنيف لصور الجملة و الوحدة الإسنادية الوظيفية و تيسير تعلمها في المرحلة الثانوية، نظرية الحمل، ص ٥٧١.

(٤) ينظر محمد علي الخولي: قواعد تحويلية للغة العربية، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ١٩٨١، ص ٢٢.

(٥) Noom Chomsky: Aspects de la theorie syntaxique، p88.

عناصر التركيب الباطني. وهذا الشرط ضروري للسيطرة على القوانين التحويلية وحصر استعمالها^(١). وهذه النظرية التحويلية تهدف إلى تحديد قواعد اللغة كلها، و إلى بناء نموذج لآليتها انطلاقاً من الفرضية التي تقر بمقدرة المتكلم المستمع على أن ينتج عددًا غير متناه من جمل لغته ويفهمها^(٢). ذلك أن الأساس النظري الذي انطلقت منه هذه النظرية يقوم على مبدأ يقرر أن مهمة الوصف اللغوي هي أن يفسر لغة المتكلم المستمع الفعلية و سليقته أو قدرته اللغوية ومعرفته بهذه اللغة^(٣).

واللافت للانتباه أن التحويل مثل ما يمس الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية يمس أيضًا الصيغة الصرفية، إلا أن التحويل في البنية التركيبية يتبعه بالضرورة تحول في المعنى. أما التحويل في البنية الصرفية فقد يكون وظائفًا، وقد يكون لغرض التخفيف الذي تنشده اللغة العربية حين يسجل تنافر بين أحرف الكلمة^(٤).

في نحو التحويل الذي نقف عليه في الإبدال و الإعلال في مستوى الكلم^(٥). "وهذا التحويل لا يغير عن المعنى لأنه مجرد تمثيل لما يترتب من التغير اللفظي إذا حمل ظاهر اللفظ على أصله الذي يقتضيه القياس (أي الباب الذي ينتمي إليه هذا اللفظ). وهذا النوع من التحويل كان يسميه النحاة التصريف وقد بنوا على ذلك ما أسموه بمسائل التصريف (في مستوى الكلم) "وهو عبارة عن نظام ابستيماتيكي لصناعة العمليات التحويلية المذكورة"^(٦).

(١) ينظر محمد علي الخولي: المرجع نفسه، ص ٣٩، ٤٠.

(٢) ينظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، ص ١٩.

(٣) ينظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: المرجع نفسه، ص ١٥، الهامش ١.

(٤) ينظر بومعزة رابح: تصنيف وتحليل لصور الإعلال والإبدال في المشتقات الأحد عشر والمصادر، ص ٥٣.

(٥) ينظر ابن جني: الخصائص، ١/ ١٠٦.

(٦) د. عبد الرحمن الحاج صالح: المدرسة الخليلية الحديثة، نقلاً عن حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي ٢٥٠.

أنواع التحويل:

للتحويل الذي يمس الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية نوعان، تحويل جذري، وتحويل محلي.

١ - التحويل الجذري:

"وهو التحويل الذي ينقل المركب الاسمي^(١) إلى رأس الجملة ثم يعلقه بالعقد (س) المسيطر الأساس. ولذا فإنه ينتمي إلى مجال التحويلات الجذرية"^(٢). وهي تلك التحويلات التي أطلق عليها الجرجاني مصطلح "التقديم لا على نية التأخير"^(٣). يقول الجرجاني: "اعلم أن تقديم الشيء على وجهين: تقديم يقال له إنه على نية التأخير (...)، و تقديم لا على نية التأخير ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم وتجعل له باباً غير بابه وإعراباً غير إعرابه (...). مثل ضربت زيداً، وزيد ضربته، لم تقدم زيداً على أن يكون مفعولاً منصوباً (...) ولكن على أن ترفعه بالابتداء"^(٤).

وهذا التحويل هو الذي ينقل فيه المسند إليه من مكان داخل الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية إلى مركز الصدارة متخلصاً من أثر الفعل الذي كان العامل الأساس فيه من نحو: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (البقرة / ٢٠٥). ذلك أن لفظ الجلالة "الله" في هذه الجملة لا يخضع وظيفياً للفعل "يحب"، وإنما العامل فيه هو الابتداء^(٥).

(١) يقصد بالمركب الاسمي الاسم المؤدي وظيفة المبتدأ، أي ما يسميه هذا البحث الوحدة الإسنادية الوظيفية.

(٢) Emonds Joseph : transformations radicales conservatrices et locales ، ED ، seuil ، Paris ، p 52 .

(٣) ينظر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٠٦.

(٤) الجرجاني: المرجع السابق، ص ١٣٥، ١٣٦.

(٥) ينظر سيبويه: الكتاب ٢ / ١٢٧.

ومن خلال التحليل النحوي العربي للجملة الواردة في تلك الآية نلاحظ أن الجملة الاسمية المركبة^(١) تختلف جذرياً عن الوحدة الإسنادية الفعلية المضارعية المنفية^(٢) الواردة في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام / ٧٦). لأن التركيبين الإسناديين "و الله لا يحب الفساد"، و"لا أحب الآفِلين" يعبران عن مواقف كلامية مغايرة تماماً - كما انتهى إلى ذلك سيبويه و أمثاله حين تحليلهم مثل هذين التركيبين الإسناديين^(٣).

يؤكد ذلك سيبويه بقوله: " فإذا بنيت الفعل على الاسم قلت: زيد ضربته، فلزمته الهاء، و إنما تريد بقولك مبني عليه الفعل أنه في موضع (منطلق) إذا قلت (عبد الله منطلق)، فهو في موضع هذا الذي بني على الأول و ارتفع به (...) و مثل ذلك قوله جل شأنه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ (فصلت / ١٧). و إنما حسن أن يبنى الفعل على الاسم حيث كان معملاً في المضمرة و انشغل به"^(٤).

وأساس ذلك أن من الشروط البنوية التي يجب توافرها في هذا النوع من التراكيب إجبارية الضمير العائد؛ لأن الفعل لا بد له من اسم يشتغل به. " إذ لا تعرف اللغات فعلاً بدون شخص"^(٥) أي بدون فاعل. ذلك أن الضمير العائد على المبتدأ المتصل بالفعل إجباري، ولولا ذلك لم يحسن - كما رأى ذلك سيبويه^(٦). وهذا الضمير يعمل على المحافظة على سلامة البناء، وذلك بربط الخبر بالمبتدأ^(٧). و هذا التحويل الجذري اعتمد من طريق التفكيك. يقول " الفهري": " التفكيك نوعان: باعتبار الجهة تفكيك إلى اليمين كما في الجملة " زيد ضربته"، و تفكيك إلى اليسار كما

(١) عدت مركبة لأن الخبر فيها ورد وحدة إسنادية مضارعية بسيطة.

(٢) عدت وحدة إسنادية و لم تسم جملة لأنها مؤدية وظيفة مقول القول.

(٣) ينظر سيبويه: المرجع نفسه، ٨٠ / ١.

(٤) سيبويه: المرجع السابق، ٨١ / ١.

(٥) ابن يعيش: شرح المفصل، ٧٥ / ١، ٧٦.

(٦) ينظر سيبويه: المرجع نفسه، ٨١ / ١.

(٧) ينظر صالح خديش: (مفهوم التحويل و أنواعه في العربية)، مجلة الآداب، جامعة قسنطينة، ص

في الجملة "ضربته زيد"^(١). فالتفكيك إلى اليمين كان جذرياً، حيث تغير الاسم بالارتفاع وتحولت الجملة إلى جملة اسمية داخلية في إطار التحويل من طريق التبئير. ولو أردنا أن نحلل الجملة الواردة في الآية السالفة الذكر لوجدنا أنها لا تختلف بنوياً عن جملة "الله غير محب الفساد" وهي ١- اسم + حرف النفي + فعل المضارع + ضمير (هو) + مفعول به.

٢- اسم + اسم نفي + اسم مشبه بالفعل (وصف) مؤد وظيفة المضاف إليه + ضمير + مفعول به. والاختلاف بينهما دلالي توفره زيادة الصيغة الزمنية بالنسبة إلى الفعل في الجملة الأولى^(٢). بينما يفتقر إلى ذلك الاسم المؤدي وظيفة الخبر في الجملة الثانية. يقول ابن يعيش: "زيد ضارب، وعمرو مضروب، وخالد حسن، ومحمد خير منك. ففي كل واحد من هذه الصفات"^(٣) ضمير مرفوع بأنه فاعل^(٤) لا بد منه لأن هذه الأخبار في معنى الفعل"^(٥).

٢ - التحويل المحلي:

وهو ما يعرف بالتقديم على نية التأخير أو الرتبة غير المحفوظة^(٦)، مع مراعاة التغيرات الدلالية الحاصلة في كل مرة. يقول الجرجاني: "اعلم أن تقديم الشيء على وجهين تقديم يقال له إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقرته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل"^(٧). فالجملة الفعلية الواردة في قوله تعالى:

(١) عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٨٦، ص ١٢٨.

(٢) يقصد الوحدة الإسنادية المضارعية المنفية "لا يحب الفساد".

(٣) الوصف يطلق على الاسم المشتق العامل عمل فعله.

(٤) أو نائب فاعل.

(٥) ابن يعيش: شرح المفصل، ١/ ٨٧.

(٦) ينظر د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢٠٢.

(٧) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٣٦، ١٣٥.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ (النجم / ٥٣). هي جملة فعلية محولة تحويلاً محلياً ، بنيتها العميقة " أهوى المؤتفكة " جرى عليها عنصر من عناصر التحويل وهو الترتيب بتقديم المفعول به "المؤتفكة" على نية التأخير^(١)، للعناية والاهتمام، أو الاختصاص^(٢). وبعضهم قسم التحويل إلى سطحي وعميق.

فالتحويل السطحي وهو الأبسط والأهم وظيفياً والأكثر تداولاً في الكلام يتبدى في أربعة أقسام:

١ - التحويل بالترتيب.

٢ - التحويل بالزيادة

٣ - التحويل بالحذف

٤ التحويل بالاستبدال.

وبدون مراعاة التحويل الواقع في التراكيب الإسنادية (الجمل أو الوحدات الإسنادية) المحولة وبدون مراعاة صوورها باهتمام وعناية بالعودة إلى البنية العميقة لتلك التراكيب الإسنادية (أي الأصل الحقيقي أو المفترض) يكون من العسير فهم تلك التراكيب الإسنادية الواردة على غير أصلها (أي المحولة) ويكون من الصعب تفسير عقدها بدقة و سلامة^(٣).

أما التحويل العميق فهو ذاك الذي ينطبق على التراكيب التي وقع تحويل في وظائف كلماتها من الإسناد إلى التخصيص من نحو التحويل الجاري في تمييز النسبة^(٤).

(١) ينظر الجرجاني: المرجع نفسه: ص ١٣٥، ١٣٦.

(٢) ينظر البرزة أحد غنثار: أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم: دراسة تحليلية لنموذجين من الاشتغال طبيعته وإعرابه، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٥.

(٣) ينظر د. عبد الجبار تومة: (المنهج الوظيفي العربي الجديد لتجديد النحو العربي)، أعمال ندوة تيسير النحو، ص ٣١٠.

(٤) ينظر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٩٢، ٩٣، و ينظر ابن هشام: شرح شذور الذهب ١ / ٣٣٣ وما بعدها.

أصول التعليل والتفسير:

وقبل أن نعرض لصور التحويل في الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية يحسن بنا أن نقف عند مسألة ذات علاقة وثيقة بالتحويل تتمثل في أصول التعليل والتفسير.

واللافت للانتباه أن اللغة ليست في استعمالاتها المختلفة مرايا عاكسة للقاعدة النحوية تظهر انطباق كل حد نحوي على محدوده انطباقاً تاماً. إذ تحتاج بعض صور استعمال المحدود إلى تعليل يعيدها إلى حيز الحد النحوي لينطبق حكم الحد على المحدود، وتتوافق صور استعمال المحدود مع الحد. ولعل أبرز صور التوافق في النحو (توافق البناء عند العرب) التي يبحث فيها عن تكافؤ البنى^(١) ما يأتي ذكره:

١ - العوارض التركيبية:

وهي أن تقع الوحدة الإسنادية الوظيفية موقع الكلمة المفردة التي يظهر عليها أثر الحكم النحوي في الأصل وقوعاً استبدالياً يسمح بتحقيق الصورتين: الفرع والأصل في الاستعمال اللغوي. فهذه الوحدة الإسنادية الوظيفية حين وقوعها موقع المفرد في بعض الاستعمال يحكم عليها بإعراب في موقعها بحسب إعراب المفرد الذي وقعت موقعه، فهي لا تفيد بنفسها. ويفسر النحويون هذا التناوب في الموقع بين الكلمة المفردة والوحدة الإسنادية الوظيفية التي تنوب عنها بتقدير الوحدة الإسنادية الوظيفية في محل الاسم المفرد وحكمه، وأساس ذلك أن المفرد هو الأصل^(٢) فتكون الوحدة الإسنادية الوظيفية عارضة. قال الجرجاني: "إن الجملة"^(٣) لها إعراب لنيابتها عن المفرد"^(٤). وهذا التعليل فيه لمح لفكرة "الخانية". فما يقع في خانة واحدة يأخذ حكماً واحداً وإن تعددت صور استعماله"^(٥). فالوحدات

(١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنوية، اختلافها النظري و المنهجي)، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ص ٢٩.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل، ٦٥ / ٣.

(٣) يقصد بالجملة الوحدة الإسنادية الوظيفية.

(٤) الجرجاني: المقتصد، ١ / ٢٩٢.

(٥) ينظر نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء، مناهج التطور اللغوي الحديث، ص ٤٩، ٥٠.

الإسنادية الوظيفية التي تنوب عن المفرد لا يمكن أن تعد جملاً لعدم إفادتها بنفسها فهي مثل المفرد لها صور مختلفة تنطبق عليها فكرة الخانية. سواء أكانت هذه الوحدات الإسنادية مشتملة على موصول حرفي أم موصول اسمي أم مجردة منها. وسواء أكانت اسمية أم فعلية، حيث تفسر هذه الوحدات الإسنادية التفسير نفسه الذي يأخذه المفرد. قال ابن عصفور: "يجوز أن تنوب "أن" واسمها وخبرها، و"أن" الناصبة للفعل والفعل المنصوب بها مناب المفعولين من باب "ظننت" والمفعولين: الثاني والثالث من باب أعلمت". ولا يسد في غير ذلك إلا مسد اسم واحد"^(١). ويعني ذلك إحلال هذه الوحدة الإسنادية الوظيفية محل المبتدأ، أو المفعول به، أو الخبر، أو النعت، أو الحال، أو المستثنى أو المضاف إليه، والفاعل ونائبه.

٢- اللوازم التركيبية:

ينبغي لمدرس النحو أن يعرف اللوازم التركيبية، "وهي أن يقع اللفظ في الجملة"^(٢) موقعاً لازماً ليس له حق الأصالة. فلا يجوز استعمال الأصل من غير خرم الجملة لفظياً أو معنوياً لنيابته عنه"^(٣). من ذلك أن بعض الحروف تنوب عن المعنى الوظيفي لها. ف"إن وأخواتها تنوب عن الأفعال" تؤكد"، و"أرجو" عن الفعل "أتمنى" و"أشبه"، و"أستدرك" كل حرف. ينوب عن الفعل الذي يناسبه في المعنى"^(٤) والأداة "إلا" تنوب عن الفعل "أستثني"^(٥). وتقدير المعنى اللازم وسيلة لتفسير الحكم الإعرابي.

(١) ابن عصفور: شرح جل الزجاجة، ١/ ٣١٧.

(٢) يقصد بالجملة الوحدة الإسنادية الوظيفية.

(٣) عبد العظيم فتحي: بين الأصالة والنيابة في النحو العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ت، ص ٣٣٣، ٣٣١.

(٤) ينظر ابن هشام: شرح اللمحة البدرية في علم العربية، تحقيق صلاح رَوَّاي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، د. ت، ٣/ ١٣٠.

(٥) ابن يعيش: شرح الفصل، ٢/ ٧٦.

ففائدة تقدير "إن" بمعنى "أكد" تفسير نصب اسمها. ولا يعني ذلك أن الفعل المقدر يصح ظهوره ، لأن ذلك يؤدي إلى تصوير الجملة الاسمية فعلية. ويمكن عد حمل علامات الإعراب الفرعية على علامات الإعراب الأصلية من صور التلازم التركيبية^(١).

٢ - حفظ أصل التركيب:

لكل عنصر من عناصر الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية حرية التقديم أو التأخير ما لم تتعارض هذه الرتبة مع أي أصل آخر من أصول التركيب فيها. فلا يجوز تقديم الفاعل على فعله، لأنه لو تقدم على الفعل لصار مبتدأ في اللفظ^(٢). ذلك أن الأصل في تركيب الجملة الفعلية التوليدية أن يأتي المسند ثم المسند إليه. والأصل في تركيب الجملة الاسمية التوليدية أن يأتي المسند إليه ثم المسند الذي ينبغي أن يكون مفردًا نكرة. ولهذا إذا تقدم الفاعل على فعله دخل في أصل تركيب الجملة الاسمية التحويلية. و بوجوب حفظ أصل التركيب يرجع اللبس. ومنع تقدم الخبر الوارد وحدة إسنادية فعلية على المبتدأ واجب لئلا يدخل الخبر المقدم في أصل تركيب الجملة الفعلية. ولعل سبب وجود حفظ أصل التركيب في ألفاظ الصدارة هو المعنى، لأن من وظائف ألفاظ الصدارة نقل معنى الجملة من معنى إلى آخر كنقل "ليت" الجملة الاسمية إلى التمني، ونقل أدوات الاستفهام الجملة من الخبر إلى الاستخبار. و"لايتقدم المستفهم عنه أداة الاستفهام لأن لها مرتبة التصدر"^(٣).

٤ - أصل أمن اللبس:

ويقوم على مقصد مهم من مقاصد اللغة وهو الإفادة. فتحقيق "أمن اللبس أهم ما تحرص عليه اللغة"^(٤). لأن اللغة الملبسة لا تصلح أن تكون وسيلة للتفاهم

(١) ينظر حسن خميس سعيد الملقح: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) ينظر الدينوري: ثمار الصناعة، مؤسسة بدران، بيروت، ١٩٦٣. ص ٩٣، ٩٤.

(٣) الإسترأبادي: شرح الكافية، ١/ ٢٥٧، ٢٥٩.

(٤) تمام حسان: أمن اللبس ووسائل الوصول إليه في اللغة العربية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د.ت، ص ١٢٤.

والتخاطب^(١) فاللبس في أي صورة من صورته محذور^(٢) لأنه يتنافى مع مقاصد اللغة في التعبير عما يختزنه الإنسان من أفكار تعبر عن حاجاته المختلفة. سواء أكان هذا الإنسان مرسلًا أم مرسلًا إليه. ولأمن اللبس في النحو حرية في إدارة وجوه الكلام تقديرًا وتأخيرًا، وحذفًا، وزيادة^(٣) ويدور في أمن اللبس تلك عدة صور تطبيقية في الدرس النحوي تجعل منه أصلًا من أصول التعليل ضمن النحو. لأن أمن اللبس مطلب أساس من مطالب الموقف الكلامي الحي عند مستعملي اللغة. وأهم هذه الصور التطبيقية المسوغات، وهي علل تميز كسر قاعدة الباب العامة من نحو التقديم والتأخير والتعريف والتكثير والذكر والحذف في الجمل والوحدات الإسنادية الوظيفية المحولة^(٤). ولقد ربط "العكبري" مسوغات حذف المبتدأ والخبر جوازًا بأصل "أمن اللبس" فقال: "وإنما يسوغ حذف هذا المبتدأ أو الخبر في موضع يعلم أنه مراد من غير لبس"^(٥). ذلك أن من مسوغات أمن اللبس دلالة الحال. ولقد أدرك نحاة العربية حين وصفهم قواعدها أن اللغة نشاط اجتماعي^(٦) يشمل العلاقة الاجتماعية بين المرسل والمرسل إليه وكيفية التعامل الاجتماعي الكلامي ونوعيته في التواصل^(٧)، لما أدركوا ذلك كله انتهوا إلى أن القرائن الحالية قد تغني في الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية عن اللفظ^(٨). فإذا كان المعنى مستدلًا عليه من قوة الكلام فلا يحتاج إلى الجملة^(٩). (الدالة

(١) ينظر عبد الفتاح الحموز: مواضع اللبس في العربية وأمن لبسها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دت، ص ١٠.

(٢) السيوطي: الأشباه والنظائر، ٢ / ٣١٤.

(٣) ينظر عبد الفتاح الحموز: المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٤) ينظر د. محمود نحلة: نظام الجملة في شعر المعلقات، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، دت، ص ٥٥.

(٥) العكبري: اللباب، ١ / ١٣٩.

(٦) ينظر فندريس: علم اللغة، ص ١٨٣.

(٧) ينظر جون ليونز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص ٢٧ - ٣٠.

(٨) ينظر ابن يعيش: شرح المفصل ١ / ١٢٥ و السيوطي: الأشباه والنظائر، ٢ / ٣٠١.

(٩) أي لا يحتاج إلى الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية

عليه^(١). وأساس ذلك أن دلالة الحال علة اجتماعية واضحة في أعمال النحويين، تتجلى بوضوح في كتاب سيبويه والمصنفات النحوية^(٢) التي اتخذت من حال الكلام منطلقاً من منطلقات التقعيد والتفسير. فحذف الخبر بعد "لولا" الشرطية الامتناعية مسوغه دلالة الحال عليه^(٣). أي أن الخبر مدلول عليه من الكلام، حيث إن "العلم بالمحذوف علة لأصل الحذف"^(٤).

والتعليل يعد جزءاً من التفسير، فالنظرية اللسانية عند الفاسي الفهري "بناء عقلي يتوق إلى ربط أكبر عدد من الظواهر الملاحظة بقوانين خاصة تكون مجموعة متسقة يحكمها مبدأ عام هو مبدأ التفسير"^(٥). و التفسير يتجاوز الوصف و التقرير، فهو مفهوم شامل يفسر النظام اللغوي من حيث المفاهيم النحوية كالحالة الإعرابية والتطابق والتقدير والحذف والزمن^(٦). والتعليل شكل من أشكال الكفاية اللغوية^(٧) هدفه " التعرف على أسرار الحكمة التي تضيئي نوعاً من التنظيم المتناغم على لغة العرب"^(٨). والذي ضاعف من اهتمام النحاة بالبحث عن علل العربية نزول القرآن بها على نحو معجز في النظم^(٩) على مختلف مستوياته. والحديث عن التعليل و التفسير يقودنا إلى الحديث عن المعيارية؛ لأن المعيارية وسيلة ناجحة في تعلم النحو. ذلك أنه لما كان مستعمل اللغة لا يستطيع سماع اللغة الكاملة كان في حاجة مهيئة إلى معيار يجعل ما يقوله بمنزلة ما يسمعه^(١٠).

(١) ابن الربيع: البسيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق عباد البستاني، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٨/٥٦٦.

(٢) ينظر د. نهاد موسى: الأعراف، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، المؤسسة التونسية للكتاب، ١٩٨٤، ص ١٤٥ - ١٧٦.

(٣) ينظر ابن يعيش: شرح المفصل ٩ / ٩١.

(٤) الصبان: حاشية الصبان، ١ / ٣١٥، ٣١٦.

(٥) عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات و اللغة العربية، ص ١٣.

(٦) ينظر حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ٢٥٢.

(٧) ينظر حسام سعيد النعيمي: ابن جني عالم العربية، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٨) هنري فليش: النحو، دار المعارف الإسلامية، ٢٢ / ٦٢، ٦٨.

(٩) ينظر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ١٩٢ - ٢١٥٢.

(١٠) ينظر حسن خميس سعيد الملخ: المرجع السابق، ص ١٨٨.

وطرد المعيار يقتضي في بعض المواضع العودة إلى البنية العميقة، لأن المعيار ثابت ليس له إلا صورة واحدة غالباً. فالوحدات الإسنادية المؤدية وظيفة ما من نحو الوحدة الإسنادية المؤدية وظيفة المبتدأ، أو الخبر، أو النعت، أو الحال، أو المضاف إليه، أو المفعول به، أو الفاعل بنياتها العميقة إما مصدر صريح، وإما مشتق (وصف) لأن الأصل فيها هو المفرد، ولا تتحقق صورة المفرد إذا جاء وحدة إسنادية إلا باللجوء إلى بنيته العميقة، فيكون طرد المعيار في العودة إلى البنية العميقة لهذه الوحدة الإسنادية المؤدية تلك الوظيفة.

ثم إن النحو العربي قد قام على ركيزتين أساسيتين هما: الوصف والتفسير^(١). فالوصف تمثل في تجريد قواعد تم التوصل إليها من خلال استقراء نصوص الاحتجاج المقبولة. أما التفسير فهو اجتهاد من النحوي يرمي إلى تعليل القاعدة المستخلصة من الوصف وتفسيرها.

وهذا التعليل اجتهاد من النحاة، قال فيه سيبويه: "وليس شيء مما يضطرون"^(٢) إليه إلا وهم يحاولون به وجهاً"^(٣). ونحاة العربية كانوا يهدفون إلى الارتقاء بالنحو العربي من مستوى (الوصف) المتمثل في الملاحظات إلى مستوى التفسير والتعليل، إيماناً منهم أن "وظيفة العالم تفسير الظاهرة لا الوقوف عند وصفها"^(٤) إذ إن أعلى مستويات البحث العلمي هي تفسير الظاهرة بضروب التعليل المختلفة - ثم إن التعليل والتفسير مرتبطان بالتعليم، لذلك فإن على مدرس النحو أن يدرك ما للتعليل من أهمية في عملية التعلم. حيث إن التعلم الفاعل للنحو يتكئ على معيارين اثنين كما سبق أن ذكرنا^(٥). واللافت للانتباه أن ثمة نوعين من التعليل: تعليل ضمن النحو يستخدم القياس وسيلة لتسوية الحكم النحوي وتأمينه. وهذا

(١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنية، اختلافها النظري و المنهجي)، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ص ٢٤.

(٢) أي العرب.

(٣) سيبويه: الكتاب ١ / ٣٢.

(٤) ينظر ابن الأنباري: أسرار العربية، ص ٤٩ - ٥٩.

(٥) ينظر بومعزة رابع: المرجع السابق، ص ٥٤٤.

التعليل يعد جسراً يربط بين الأصل النظري و صورته العملية المستعملة في اللغة^(١) كأن يأتي المبتدأ في الجملة الاسمية التحويلية وحدة إسنادية مضارعية^(٢). وتعليل في إطار نظرية النحو مبني على تصور النظرية النحوية التي قبل أن تعلل ما هو كائن من الاستعمالات اللغوية تعلل ما يجب أن يكون، لأنها بناء نظري لنحو العربية، وإذا كان النحويون قد قسموا العلل إلى تعليمية و قياسية و جدلية، فإن العلل التعليمية و القياسية هي التي تفيد المتعلمين في الأحكام الإجرائية حين تعلم النحو بالمفهوم المشار إليه آنفاً^(٣).

أنواع التحويل وصوره :

أولاً - التحويل بالاستبدال :

إذا كان من أصول البنوية " التوزيع " ، وهو منهج في التحليل اللغوي اتخذته مدرسة " بلومفيلد " يقوم بتوزيع وحدات لغوية بطريقة استبدال وحدة لغوية بأخرى لها السمات التوزيعية نفسها^(٤)، و إذا كان التحويليون يعتمدون - مثل البنويين - على مقياس التكافؤ، و هو صلاحية قيام الشيء مقام الشيء (الاستبدال في الاصطلاح اللساني الحديث)، فإن النحاة العرب يبحثون عن مكانة المحول و دوره الذي يؤديه في الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية التي ينحصر فيها. والاستبدال هو إمكانية إقامة وحدة لغوية أو وحدة إسنادية مقام وحدة لغوية أو وحدة إسنادية أخرى لأن " الشيء المقام مقام الشيء بما أنه وحدة دالة ، فهما^(٥) من قبيل واحد تماماً"^(٦).

(١) ينظر حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ١١٧.

(٢) ينظر بومعزة رابع: المرجع نفسه، صور الوحدة الإسنادية المضارعية المؤدية وظيفة المبتدأ، ص ١٠١ وما بعدها.

(٣) ينظر ابن جني: الخصائص، ١ / ٣٤.

(٤) ينظر نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث، ص ٣٧، ٣٨.

(٥) أي المستبدل و المستبدل عنه.

(٦) د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنوية، اختلافها النظري و المنهجي)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ص ٢٠.

"والاستبدال باب من أبواب التكافؤ من حيث جمعه كل العناصر التي يمكن أن يستبدل بعضها ببعض في سياق معين. والعلائق الاستدلالية هي علائق قياسية"^(١). فما يقع في خانة واحدة يأخذ حكمًا واحدًا وإن تعددت صورته"^(٢)، يقول ابن فارس: "من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ"^(٣). و اللافت للانتباه في هذه المسألة هو أن البنية السطحية و البنية العميقة متكافئتان في اللفظ و لكنهما مفترقتان في المعنى.

والتحويل بالاستبدال يشمل كل الوحدات الإسنادية الوظيفية المؤدية وظائف المبتدأ والخبر والفاعل ونائب الفاعل والمفعول به والنعت والحال والمضاف إليه والمستثنى. فهي كلها استبدلت بمفرد يرتد إلى مصدر أو مشتق. وقبل أن نقف على صور التحويل بالاستبدال وددنا لو نقف على نموذجين من التراكيب الإسنادية المحولة بهذا النوع، وهما:

١ - الوحدة الإسنادية المحولة عن المصدر:

إذا كان التحويل هو إجراء الشيء على الشيء، وإذا كان بعضهم يرى أن التأويل معناه إرجاع الشيء إلى أصله، فهل يمكن أن نقول: إن الوحدة الإسنادية الوظيفية المؤلفة من الحرف المصدرى وعناصر الإسناد (المصدر المؤول) سميت كذلك لأنها ترجع في أصلها إلى المصدر الصريح؟. والحق إن مثل هذه الوحدة الإسنادية الوظيفية (المصدر المؤول) وضعت للدلالة على معنى نحوي يفترق عما يدل عليه المصدر الصريح. فقله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة / ١٨٤). يلاحظ أن الوحدة الإسنادية المضارعية "و أن تصوموا" تفترق في الدلالة عن المصدر المؤولة به "صومكم". والعجيب أن بعض الباحثين يذهب إلى أن المصدر المؤول يعود إلى المصدر الصريح عودًا تامًا، فيعزب عن شرح معنى التأويل المراد في

(١) ينظر نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة و مناهج البحث اللغوي المكتبة الجامعية، الأزاريطة، الإسكندرية ٢٠٠١، ص ٣١٣.

(٢) نهاد موسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث، ص ٤٨.

(٣) ابن فارس: الصحابي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها، ص ٥٧.

المصدر المؤول، فيقول "أظن أنه من نافلة القول أن أشرح معنى المؤول، فإن الاسم نفسه يشعر بأنه قد تأول إلى مفرد فيقع موقعه الإعرابي"^(١). إن مفهوم الدكتور "محمد عيد" للمصدر المؤول غير دقيق لأن فيه تركيزاً على الجانب الموقعي ممثلاً في استبدال هذا المصدر المؤول بالمفرد، ولأنه تصور لفهم جوانب التركيب الإسنادي المكون من الحرف المصدرى و مدخوله^(٢) قائم على مجرد اتضاح تأويل ذلك التركيب بمفرد. ولو أننا وقفنا نفهم المصدر المؤول عند هذه النقطة لكان من اللازم أن يكون بينه وبين المصدر الصريح تطابق تام، وهو ما لا نستطيع التسليم به. و المصدر المؤول - فيما نعلم - لم يجد من النحاة من الاهتمام به أكثر من كونه موصولاً حرفياً يدرس غالباً في باب الموصول، كما هي الحال في "كافية ابن الحاجب" التي جاء فيها ما نصه "و حد الموصول الحرفي ما أول مع ما يليه من الجمل"^(٣) بمصدر^(٤) كما يجيء في حروف المصدر و لا يحتاج إلى عائد"^(٥).

و كما هو واضح، فإن هذا التعريف قد اكتفى بوضع قيود تحدد ما يتميز به الموصول الحرفي عن الموصول الاسمي من علامات، من نحو عدم احتياجه إلى عائد، فهو لا يصلح أن يكون حدّاً يعرف المصدر المؤول بالشكل الذي يُطمأن إليه. ولقد كان تعريف المصدر المؤول لا يزال في حاجة إلى تعريف دقيق - ولو على سبيل الشكل الإجرائي في أول الأمر - كما هي الحال في تعريف المصدر الصريح بأنه "اسم الحدث الجاري على الفعل"^(٦).

إن المصدر المؤول (الوحدة الإسنادية المؤدية وظيفية نحوية ما بالاستبدال) هو ذلك التركيب الإسنادي المؤلف من أحد الأحرف المصدرية و مدخولاتها من

(١) د. محمد عيد: المصادر واستعمالاتها في القرآن الكريم، عالم الكتب، بيروت، ١٩٧٩، ١/ ٢٦٧.

(٢) يقصد بمدخوله الفعل و مرفوعه، أو اسم "إن" و خبرها.

(٣) يقصد بالجمل الوحدات الإسنادية الوظيفية.

(٤) يقصد بمصدر صريح.

(٥) ابن الحاجب: الكافية في النحو، ٢/ ٣٥.

(٦) ابن الحاجب: المرجع نفسه، ٢/ ٣٥.

الأفعال و الأسماء. و "إن المراد بالاسم الأول بالصریح المصدر المنسب من الفعل و الحرف المصدری، سواء أكان الحرف السابك هو "ما" المصدرية (...). أم كان الحرف المصدری هو "أن" ^(١) (...). أم كان الحرف المصدری هو همزة التسوية بعد لفظ "سواء" ^(٢) أو الحرف "لو". ويرى سيويه أن الوحدة الإسنادية الفعلية التي قوامها الحرف المصدری "أن" والفعل و مرفوعه لا يختلف سلوكها النحوي عن الوحدة الإسنادية الاسمية التي قوامها الحرف المصدری "أن" و معمولها من حيث إنها بمنزلة اسم واحد يستبدلان به ليؤدیا وظيفة ما في الجملة المركبة أو الوحدة الإسنادية المركبة، حيث يقول "باب ما تكون فيه "أن" و "أن" مع صلتها بمنزلة غيرها من الأسماء و ذلك قولك: ما أتاني إلا أنهم قالوا كذا وكذا (...). كأنه قال: ما أتاني إلا قولهم كذا و كذا. و مثل قولهم ما منعي إلا أن يغضب عليّ فلان" ^(٣). و قد لاحظت "موزل" أن سيويه يصنف أضرباً من الكلم تصنيفاً واحداً وفقاً لخطة في الاستبدال. و قررت أن تقسيماته أقسام الكلام من حيث انتسابها إلى باب الاسم مشابهة لطريقة التصنيف عند أتباع منهج التحليل إلى المؤلفات المباشرة ^(٤). فهو يصنف المصدر المؤول "أن يفعل" أو "أنه يفعل أو أنه فعل" أسماء من جهة أنه يمكن أن يستبدل بها اسم مفرد ^(٥). و قد أشار ابن يعيش إلى أن التوكيد المصدری بـ "أن" "تقلب معنى الجملة" ^(٦) إلى الأفراد و تصير في مذهب المصدر المؤكد ^(٧) لأنها تفتقر في انعقادها جملة ^(٨) إلى شيء يكون معها، و يضم إليها. و ما بعدها من

(١) وقد يكون المصدر المؤول مكوناً من الحرف المصدری "أن" و معموليها.

(٢) محيي الدين عبد الحميد: عدة السالك إلى ألفية ابن مالك، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢، ١ / ١٨٥.

(٣) سيويه: الكتاب، ٢ / ٣٢٩.

(٤) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنوية، اختلافها النظري والمنهجي)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ص ٢٩.

(٥) Mosel Ulrik: Die syntactic Bei Sibawiah، P13.

(٦) يقصد بالجملة ما سماه كتابنا "الوحدة الإسنادية الوظيفية".

(٧) ابن يعيش شرح المفصل، ٨ / ٥٩.

(٨) يقصد بـ "جملة" الوحدة الإسنادية الوظيفية.

منصوبها^(١) و مرفوعها بمتزلة الاسم الموصول؛ فلا يكون كلاماً مع الصلة إلا بشيء آخر من خبر أو نحوه^(٢) و تأسيساً على ذلك، فإن المصدر المؤول يخرج عن دائرة الجملة، فهو يعد وحدة إسنادية وظيفية تشكل عنصراً من عناصر الجملة التحويلية أو الوحدة الإسنادية التحويلية المركبة^(٣) و هو يعامل معاملة الاسم ما دام يصلح أن يكون مسنداً أو مسنداً إليه وسوى ذلك من الوظائف التي يؤديها. و يترتب على هذه النتيجة أن نخالف من يسير على الطريقة الغربية في توزيع أقسام الجملة إلى فرعية وأصلية على نحو ما فعله صاحب كتاب "مدخل إلى دراسة الجملة العربية" حين قوله "من الجمل الفرعية التي تحمل محل المفرد من الجمل الأصلية و ترتبط بها برابط جملة المصدر المؤول"^(٤). و إخراج المصدر المؤول من دائرة الجملة راجع إلى ما يتميز به عنها من فروق في الشكل^(٥) والدلالة^(٦).

وعلى الرغم من "أن الناس قد أكثروا في حد الاسم"^(٧) حدوداً تنظر إلى الشكل أحياناً، و إلى الدلالة أحياناً أخرى، فإنه يندر وجود تعريف يجمع الشكل بالدلالة على نحو ما فعله صاحب كتاب "النحو الوافي" حين قال "فالمصدر الصريح الأصلي أي غير المؤول وغير الميمي والصناعي هو الاسم الذي يدل في الغالب على الحدث المجرد (...). فأما من ناحية دلالة المعنوية فإنه يدل في الغالب على مجرد الحدث. أي يدل على أمر معنوي محض، لا صلة له بزمان أو مكان، ولا بعلمية ولا بتذكير أو تأنيث، و لا بإفراد أو جمع أو غيره إلا إذا كان دالاً على مرة أو هيئة. و أما

(١) يقصد الفعل المضارع المنصوب أو اسم "إن".

(٢) ابن يعيش: المرجع نفسه، ٥٩ / ٨.

(٣) ينظر بومعزة رابع: المرجع السابق، صور الوحدة الإسنادية المركبة، ص ٩٧.

(٤) محمود نحلة: مدخل إلى دراسة الجملة العربية، ص ١٦٨.

(٥) المصدر المؤول لا بد أن يتألف من حرف مصدرى ومدخوله.

(٦) ينظر بومعزة رابع: المرجع السابق، دلالة الوحدة الإسنادية المؤدية وظيفية المبتدأ أو الخبر أو الفاعل

أو المفعول به، ص ١٢٦، ٢١٦.

(٧) ابن يعيش: شرح المفصل، ١ / ٢٢.

من ناحية تكوينه اللفظي فلا بد أن يكون جامدًا مشتملاً على جميع حروف فعله الماضي أو أكثر منها، ولا يمكن أن ينقص عنه في الحروف^(١).

وإذا كان الدكتور "عبد الرحمن أيوب" قد ساوى بين المصدر مؤوله و صريحه حين رأى أنه يصح أن يقع كل منهما مبتدأ أو خبراً^(٢)، فإن هذا المصدر يمكن أن يطلق عليه المركب الاسمي^(٣)، وهو مجموعة وظائف نحوية ترتبط بعضها ببعض تتمم معنى واحداً يصلح أن يشغل وظيفة نحوية واحدة أو عنصراً واحداً من عناصر الجملة، بحيث إذا أفردت هذه المجموعة وحدها لا تكون جملة مستقلة^(٤). فهو على الرغم من الوظائف النحوية التي يمكن أن يؤديها، شأنه شأن المصدر الصريح، فهو ينهض بعبء دلالة تختلف عن تلك الدلالة التي نجدها في ذلك المصدر الصريح. يؤيد ذلك قول للسهيلي مؤداه " فإن قيل: فهلا اكتفي بالمصدر واستغني به عن "أن" لأنه أخصر؟ فالجواب أن في دخول "أن" ثلاث فوائد: إحداها أن الحدث قد يكون فيما مضى، وفيما هو آت، وليس في صيغته ما يدل على المضي أو الاستقبال. فجاءوا بلفظ الفعل المشتق منه مع "أن" ليجتمع لها الإخبار عن الحدث مع الدلالة على الزمان.

الثانية أن "أن" تدل على إمكان الفعل دون الوجوب أو الاستحالة.

الثالثة: أنها تدل على مجرد معنى الحدث دون احتمال معنى زائد عليه^(٥).

٢ - الوحدة الإسنادية الوظيفية المحولة عن المشتق:

والتحويل بالاستبدال يوجب علينا الوقوف عند الوحدة الإسنادية الوظيفية^(٦)

(١) عباس حسن: النحو الوافي، ٢/ ٢٠٣.

(٢) ينظر عبد الرحمن أيوب: دراسات نقدية في النحو العربي، مكتبة الشباب، القاهرة، ١، ١٩٨٢/ ١٤.

(٣) المركب الاسمي أطلق عليه في كتابنا هذا " الوحدة الإسنادية الوظيفية ".

(٤) د. محمد حاسة عبد اللطيف: النحو والدلالة، ص ٧٤.

(٥) أبو القاسم السهيلي: نتائج الفكر في النحو، ص ١٢٦.

(٦) وقد سمى بعضهم هذه الوحدة الإسنادية الوظيفية " المركب الاسمي الموصولي"، ينظر دكتور محمد فتح: من المناهج الحديثة للبحث اللغوي، ص ٨٦.

التي قوامها الموصول الاسمي و صلته. قال ابن يعيش: "إن الذي" و أخواته مما فيه لام إنما دخل توصلاً إلى وصف المعارف بالجملة^(١). و ذلك أن الجمل نكرات، أرادوا أن يكون في المعارف مثل ذلك فلم يسغ أن تقول مررت بزيد أبوه كريم وأنت تريد النعت لزيد، لأنه ثبت أن الجمل نكرات، و النكرة لا تكون وصفاً لمعرفة و لم يمكن إدخال "أل" التعريف على الجملة لأن هذه اللام من خواص الأسماء و الجملة لا تختص بالأسماء بل تكون اسمية و فعلية فجاءوا حينئذ "بالذي" متوصلة بها إلى وصف المعارف بالجملة فجعلوا الجملة التي كانت صفة للنكرة صفة للذي وهو الصفة في تمام اللفظ و الغرض الجملة^(٢) و ذكر الزمخشري أن "الذي" وضع وصلة إلى وصف المعارف بالجملة^(٣). أي بالوحدات الإسنادية الوظيفية.

ففي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (النساء / ١). يطمأن إلى أن التركيب الإسنادي "تساءلون" الذي ذهب "ابن يعيش" إلى أنه جملة جاءت لوصف "الذي"، وهو الصفة في تمام اللفظ والغرض الجملة - يطمأن إلى أن لفظة "الذي" جاءت لتقوم بمهمة تعريف الوحدة الإسنادية "تساءلون" لتصبح هي، أي "الذي" وصلتها "تساءلون" وحدة إسنادية مضارعية وظيفتها وصف اللفظة المعرفة "الله". وهذا النوع من الوحدة الإسنادية الوظيفية يتكون من جزئين: اسم الموصول المبهم، وصلته التي تزيل إبهامه وتكون بينيتها العميقة "مشتقاً" اسم فاعل، أو اسم مفعول^(٤)، "لأنه إذا كان مجموع الموصول والصلة جزءاً من المركب يكون الموصول أيضاً جزءاً و لكن لا جزءاً تاماً أولياً إلا بصلة"^(٥) ويقصد بالمركب الجملة المركبة التي تكون الوحدة الإسنادية الوظيفية المؤلفة من الموصول و صلة مؤدية وظيفة نحوية ما فيها، كأن تكون واقعة فاعلاً،

(١) يقصد بالجملة الوحدات الإسنادية المؤدية وظيفة ما.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل ٣ / ١٤٢.

(٣) الزمخشري: المفصل، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٤) إذا كان الفعل في هذه الوحدة الإسنادية الفعلية مبنياً للمعلوم تكون البنية العميقة للمشتق المؤولة به اسم فاعل. وإذا كان الفعل فيها مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله تكون البنية العميقة للمشتق اسم مفعول.

(٥) ابن يعيش: شرح المفصل، ١ / ٦٣.

أو نائب فاعل، أو مبتدأ، أو خبراً، أو نعتاً، أو مضافاً إليه. لأن كلا من الصلة والاسم الموصول بعض من كلمة؛ فلا يمكن أن يكون الإعراب لصدرها دون عجزها الذي رأوا أنه لا محل له من الإعراب^(١). و أساس ذلك أن " معنى الموصول أن لا يتم بنفسه ويفتقر إلى كلام بعده. ولهذا المعنى من احتياجه إلى جملة^(٢) بعده توضحه (...). صار كبعض الكلمة، وبعض الكلمة لا يستحق الإعراب، لأنه أشبه الحرف من حيث إنه لا يفيد بنفسه (...). فصار كالحرف الذي لا يدل على معنى في نفسه، إنما معناه في غيره. ولذلك يقول بعضهم: إن الموصول وحده لا موضع له من الإعراب" وإنما يكون له موضع من الإعراب إذا تم بصلة^(٣). فالموصول الاسمي مع صلته بمثابة شطري اسم^(٤) فهما كاسم واحد. قال الجرجاني " إنك لا تصل الذي إلا بجملة^(٥) من الكلام قد سبق من السامع علم بها^(٦)، لأن الصلة هي مبعث الفائدة، فالموصول الاسمي إن هو إلا رابط شأنه شأن الموصول الحرفي^(٧). وإذا كان ابن هشام بقوله:

"و بلغني عن بعضهم أنه كان يلقن أصحابه أن يقولوا: الموصول وصلته في موضع كذا محتجاً أنه كالكلمة الواحدة"^(٨) يعارض أن تكون الوظيفة النحوية لاسم الموصول مع صلته، فإن كتابنا هذا سيتعامل مع طرفي هذه المعادلة على أنهما يشكلان وحدة إسنادية وظيفية^(٩) تنهض بوظائف متنوعة.

(١) ينظر ابن هشام: مغنى اللبيب ٢ / ٥٣، وينظر السيوطي: الأشباه والنظائر، ٢ / ٢٧.

(٢) يقصد بـ " جملة " وحدة إسنادية وظيفية.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل، ٣ / ١٣٩.

(٤) ينظر ابن مالك: شرح التسهيل، ١ / ٢٦٠.

(٥) يقصد بجملة صلة الموصول.

(٦) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٢٠٠.

(٧) ينظر محمد الشاوش: (ملاحظات بشأن دراسة تركيب الجملة في اللغة العربية)، حوليات الجامعة التونسية، ص ٢٥٨.

(٨) ابن هشام: المرجع نفسه، ٢ / ٤٠٩.

(٩) هذه الوحدة الإسنادية الوظيفية يسميها التحويليون جملة مدجة.

ومن صور التحويل بالاستبدال ما وقع في الوجدتين الإسناديتين الواردتين في الآية الكريمة: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ (الحج / ١٩).

إذ إن الجملة الاسمية المركبة في هذه الآية محولة بالاستبدال، حيث إن المبتدأ فيها "فالذين كفروا" محول لوروده وحدة إسنادية ماضوية، بنيتها العميقة "الكافرون"، والخبر هو الآخر محول لوروده وحدة إسنادية ماضوية "قطعت لهم ثياب" بنيتها العميقة "مقطعة لهم ثياب". ذلك أن الجملة^(١) لها إعراب لنيابتها عن المفرد^(٢). وسيأتي تفصيل هذا النوع من التحويل حين عرض صور الوحدات الإسنادية الوظيفية المؤدية وظيفة المبتدأ، والخبر، واسم الناسخ وخبره، والفاعل، ونائب الفاعل، والنعت، والحال، والمضاف إليه، والمستثنى. ومن خلال عرضنا صور التحويل في الجملة العربية وكذا في وحداتها الإسنادية الوظيفية المحولة ستنجلي لنا أهمية معرفة التحويل ودوره في الفهم السليم لمثل هذه التراكيب الإسنادية.

والتحويل بالاستبدال يمس الكلمات و الصيغ الصرفية. لذلك ينبغي لمدرس النحو أن يكون على علم بالفرق الذي بين نوعين من الزمن في اللغة العربية. وكل ذلك يدخل في دائرة الاهتمام بهذا المدرس و إعدادة الإعداد الجيد من الناحيتين العلمية والمنهجية.

١- الزمن الصرفي:

و هو الزمن الذي تدل عليه الصيغ الفعلية في حالتها الإفرادية خارج السياق، أو في الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية التوليدية.

٢- الزمن النحوي:

وهو الزمن الذي يدل عليه السياق من خلال الصيغ مفردة و مركبة مع ما يصحبها من ضمائم و قرائن لفظية وحالية^(٣). و يكون ذلك في الجملة أو الوحدة

(١) يقصد بالجملة الوحدة الإسنادية الوظيفية .

(٢) عبد القاهر الجرجاني: المقتصد، ١ / ٢٩٢.

(٣) ينظر د. تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبناها، ص ١٠٤، ١٠٥.

الإسنادية الوظيفية التحويلية. وهذا الزمن النحوي قد يعبر عنه بصيغ غير فعلية تشرب معنى الزمن داخل السياق كالمصادر والصفات^(١). وينبغي لنا أن نفهم وندرك تسمية النحاة الأفذاذ الفعل الماضي والمضارع والأمر بتلك المسميات إنما كان بالنظر إلى موقعها في الجملة أو الوحدة الإسنادية التوليدية. أما في الجملة أو الوحدة الإسنادية التحويلية فلقد أدركوا أن لهذه الأفعال دلالات أخرى تعرف على ضوء قرائن السياق وملابساته، وخلصوا إلى أن الفعل الماضي يدل على المستقبل مع أغلب أدوات الشرط^(٢) كما هو الشأن في الجملة الشرطية الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) (الإسراء / ٧)، وانتهوا إلى أن اسم الفاعل يدل على الماضي إذا كان مضافاً "لأن معنى الحديث في قولك: هذا ضارب زيد، هذا ضارب زيداً"^(٤) ويدل على الاستقبال إذا كان عاملاً عمل فعله^(٥). "وتقول: هذا ضارب عبد الله الساعة فمعناه (...). هذا يضرب عبد الله الساعة"^(٦).

ومن مظاهر هذا الصنف من التحويل على مستوى البنى الإفرادية^(٧) إقامة اسم الفاعل مكان المصدر في نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْعَتَهَا كَاذِبَةٌ﴾ (الواقعة / ٢)، أو إقامة المفعول به مكان المصدر في مثل قوله تعالى: ﴿بِأَيِّكُمْ أَلْمَفُتُونَ﴾ (القلم / ٦)، أو إقامة اسم المفعول بدل اسم الفاعل في مثل الآية الكريمة: ﴿حِجَابًا مُسْتُورًا﴾

(١) ينظر بومعزة رابع: صور الوحدة الإسنادية المضارعية المحولة المؤدية وظيفة الخبر، ص ١٤٢.

(٢) ينظر أبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن، ٢ / ١٥٢.

(٣) ينظر عبد الله بوخلخال: التعبير الزمني عند النحاة العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٧، ٦٠ / ١.

(٤) سيبويه: الكتاب، ١ / ١٧١، ١٧٢.

(٥) ينظر د. سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص ٤١٢.

(٦) سيبويه: المرجع نفسه، ١ / ١٦٤.

(٧) والتحويل في الصرف ليس دائماً يترتب عليه تغير في دلالة الصيغة المحولة. إذ قد يراد منه تجنب الثقل الذي في الصيغة الصرفية. ينظر بومعزة رابع: تصنيف و تحليل لصور الإعلال و الإبدال في المشتقات الأحد عشر و المصادر، ص ٥٢ وما بعدها.

(الإسراء / ٤٥)، أو إقامة المصدر مكان فعل الأمر في نحو قوله تعالى: ﴿وَيَا لَوْلَا دَيْنٌ
إِحْسَنًا﴾ (الإسراء / ٢٣).

ثانياً - التحويل بالزيادة:

كل كلمة في الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية ترتبط بالبؤرة فيها^(١)، التي هي الفعل مع مرفوعه، والمبتدأ مع خبره بسبب وعلاقة معينة^(٢). وبذا يتحقق النظم في التراكيب الإسنادية^(٣). يقول الجرجاني: "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"^(٤). "ولا يتحقق هذا من غير أن تعتمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعتمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسم اسماً آخر على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزاً، أو أن تتوخى في كلام هو لإثبات معنى يصير نفيًا أو استفهامًا أو تمنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعية لذلك"^(٥). والتحويل بالزيادة لوجود العوارض التركيبية يعد وسيلة تؤدي إلى توافق^(٦) أحكام النحو مع وجود الاستعمالات اللغوية الصحيحة^(٧).

والزيادة التي تعد عنصراً من عناصر التحويل هي تلك الزيادة التي يضاف فيها إلى الجملة أو الوحدة الإسنادية التوليدية كلمات قد تكون فضلات أو قيوداً^(٨)، وقد تكون عوامل متمثلة في النواسخ لتحقيق زيادة في المعنى. وأساس ذلك أن كل زيادة في المبنى تتبعها زيادة في المعنى^(٩)، قال السيوطي: "وأما تقييد الفعل بقيد من

(١) أي التركيب الإسنادي التوليدي الأصلي أي النواة.

(٢) ينظر د. خليل عناية: في نحو اللغة العربية وتراكيبها، ص ١٠٠.

(٣) سواء أكانت هذه التراكيب الإسنادية جملاً أم وحدات إسنادية وظيفية.

(٤) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤٤.

(٥) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤٤، ٤٥.

(٦) المقصود بتوافق أحكام النحو توافق البنى وتكافؤها عند العرب. ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح:

(النحو العربي والبنوية اختلافهما النظري والمنهجي)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ص ٢٩.

(٧) ينظر د. حسن خميس سعيد المله، نظرية التعليل في النحو العربي، ص ١٢٠.

(٨) والقيد يشمل المفعول به والحال والتمييز والمفعول به والمفعول لأجله.

(٩) ينظر د. خليل عناية: في نحو اللغة العربية وتراكيبها، ص ٩٦.

مفعول مطلق أو به، أو له، أو فيه، أو معه، أو حال، أو تمييز، أو استثناء، فذلك لزيادة الفائدة^(١).

فكل زيادة تدخل على الجملة التوليدية الفعلية أو الاسمية تحول معناها إلى معنى جديد غير الذي كان. قال الجرجاني: "و كلما زدت شيئاً وجدت المعنى قد صار غير الذي كان"^(٢).

فالتحويل إن هو إلا حمل الشيء على الشيء وإجراؤه عليه بغية اكتشاف الجامع الذي يجمع المحمول والمحمول له. والذي ينطلق فيه من البنية التوليدية للجملة أو الوحدة الإسنادية المكونة من عنصرين، فتحمل عليها أخرى تكون فيها زوائد لإظهار كيفية تحول هذه النواة بتلك الزوائد. "وهي في الحقيقة مقارنة بنوية أساسها ما يسمى في الرياضيات الحديثة بالتطبيق، وهي هنا تطبيق مجموعة على مجموعات أخرى طردًا وعكسًا"^(٣). ويمكن أن نوضح ذلك بالجدول التالي^(٤):

—	زيد منطلق	•
—	زيد منطلقًا	كان
—	زيدًا منطلق	إن
أمس	زيد منطلقًا	كان
-	زيدًا منطلقًا	حسبت
وهو راكبٌ	خالد عبد الله	رأى

ولقد لاحظت "موزل" من خلال اختبارها لوجود الدلالة التي يتخذها مصطلح الخبر^(٥) عند سيبويه صورًا لهذا الخبر الذي يكون عنده مبنياً على المبتدأ نحو

(١) السيوطي جلال الدين: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، تحقيق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٣٣.

(٢) الجرجاني: المرجع دلائل الإعجاز، ص ٤١١.

(٣) د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي والبنوية اختلافها النظري والمنهجي)، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ص ١٢.

(٤) الحمل هو إجراء الشيء على الشيء.

(٥) Mosel Ulrikc: Die syntactic Bei Sibawiah, P280.

"زيد أخوك" أو مبنياً على كان واسمها نحو "يظل زيد أخاك"، أو مبنياً على المفعول الأول^(١) نحو "حسب عبد الله زيداً أخاك". وإذن فهو يتخذ عند سيبويه صوراً خارجية سطحية مختلفة الموقع والامتداد. (خبر المبتدأ، خبر لظل، مفعول حسب الثاني).

ولكنه يعرف له دوراً واحداً ثابتاً في بنية عميقة أصلية يرتد إليها^(٢). ذلك أن "جملة"^(٣) كان وأخواتها وكاد وأخواتها، وإن وأخواتها، وباب ظن هي فروع "تحولة" عن أصل واحد هو الجملة الاسمية^(٤) التوليدية "التي قوامها المبتدأ والخبر وفق خطوات ثابتة مطردة. "بل إن باب "ظن" ما يزال يحمل في عنواناته دلائل حاسمة على هذا التأصيل والتفريع في مبنى الجمل. ذلك أنه يعرف بباب الأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر"^(٥).

فالنحاة العرب ينطلقون من أقل ما يمكن أن يتكلم به مفرداً، وينظرون إلى العناصر التي يمكن أن تدخل ذلك الكلام دون أن تخرجه عن كونه كلاماً واحداً^(٦). ومن العناصر التي تدخل على الجملة الاسمية التوليدية كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وأفعال الشروع، والمقاربة، والرجاء، حيث تحولها إلى جمل تحويلية اسمية فتقيدها بزمن معين. و من عناصر الزيادة أدوات النفي^(٧) التي تدخل على

(١) لأن المفعول به الأول لظل أصله مبتدأ.

(٢) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنوية، اختلافها النظري والمنهجي)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ص ٢٢، ٢٣.

(٣) أو الوحدة الإسنادية المنسوخة بهذه النواسخ.

(٤) نهاد الموسى: نظرية النحو العربي، ص ٦٣ - ٦٧.

(٥) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح (النحو العربي و البنوية، اختلافها النظري والمنهجي)، المرجع نفسه، ص ٢٢، ٢٣.

(٦) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح (النحو العربي و البنوية، اختلافها النظري والمنهجي)، المرجع نفسه، ص ٢٦، ٢٧.

(٧) من مثل لم، لا، ليس، ما، لن.

هذه التراكيب الإسنادية فتنفي الحكم، و أدوات التوكيد^(١) التي تؤكد المسند إليه أو المسند، و أدوات الاستفهام التي يسأل بها عن الحكم، و غيرها من الزيادات، سواء أكان لها أثر نحوي أم لم يكن^(٢). و هناك عناصر تدخل على الجملة أو الوحدة الإسنادية لدلالة إفصاحية من نحو أدوات التعجب أو التنبيه. ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/ ٥). يعد الناسخ الحرفي "إن" عنصر تحويل جعل الجملة الاسمية التوليدية "الله غفور" حاملة معنى التوكيد^(٣)، لأن الزيادة تحول الجملة^(٤) من معناها إلى معنى جديد، وهو ما عناه الجرجاني بقوله " وكلما زدت شيئاً وجدت المعنى قد صار غير المعنى الذي كان"^(٥). ومن الأدوات التي تضاف في صدر الجملة أو الوحدة الإسنادية التوليدية الاسمية والفعلية حرفا الاستفهام الهمزة وهل. ففي قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُنَّ ﴾ (مريم/ ٤٦). يلاحظ أن الوحدة الإسنادية الاسمية التوليدية في هذه الآية هي: "أنت راغب عن آلهتي" مكونة من مسند إليه + مسند". فدخلت الهمزة في هذه الوحدة الإسنادية لتفيد معنى الاستفهام، ولتحول الوحدة الإسنادية التوليدية إلى وحدة إسنادية تحويلية اسمية، ثم قدم المسند "راغب" للعناية والاهتمام^(٦). ويمكن أن تعد هذه الوحدة الإسنادية مضارعية محولة باستبدال المسند (الوصف) "راغب"؛ إذ إن بنيته العميقة "ترغب" وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف/ ١٧٢)، يسجل أن الوحدة الإسنادية الاسمية الاستفهامية "أألسنت

(١) من أدوات التوكيد: إن، أن، لام الابتداء، لام المرحلة، نونا التوكيد، قد، لقد وأحرف القسم... إلخ.

(٢) ينظر د. خليل عمارة: في نحو اللغة وتراكيبها، ص ١٠١ - ١٠٩.

(٣) ينظر د. خليل عمارة: المرجع نفسه، ص ١٠٢، ١٠٣.

(٤) أو الوحدة الإسنادية الوظيفية.

(٥) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤١١.

(٦) ينظر د. خليل عمارة: في نحو اللغة العربية وتراكيبها، ص ١٠٨.

بربكم" محولة بالزيادة المتمثلة في "همزة الاستفهام" المفيدة الإنكار والفعل الماضي الناسخ "ليس" المفيد النفي، وحرف الجر "الباء" ^(١) المفيدة التوكيد ^(٢). و البنية التوليدية لهذه الوحدة الإسنادية هي "أنا رب لكم" جاءت لتفيد الاختصاص، لأن مثل هذا التركيب ينبغي أن يكون المبتدأ فيه معرفاً والخبر نكرة. ومن مظاهر التحويل بالزيادة في الجملة الاسمية تعريف الخبر لدواعٍ بلاغية ^(٣) في نحو قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (النحل / ١٠٨). فالخبر في هذه الجملة الاسمية البسيطة المحولة "الغافلون" ورد معرفاً بـ "أل" لإفادة كمال الصفة في الخبر، أي الكاملون في الغفلة؛ إذ فيه قصر الخبر على المبتدأ. وقد تتعدد عناصر الزيادة لتحقيق التوكيد الذي يطلبه الخبر الإنكاري في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (الصافات / ٦). حيث إن الجملة الاسمية في هذه الآية محولة بإضافة أربعة مؤكدات، هي: إن، واللام المرحلة المقترنة بضمير الفصل "هو" المفيد التوكيد، ومجيء الخبر "البلاء" معرفاً بـ "أل". والبنية العميقة التوليدية لهذه الجملة الاسمية البسيطة هي "هذا بلاء". والتحويل بالزيادة في الجملة الفعلية قد يكون آتياً من ثلاث زيادات تمثل ثلاثة مؤكدات تتضافر لتشكيل خبراً إنكارياً. وشاهده الجملة الفعلية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ (الكهف / ٢٠). فالجملة المضارعية المنفية في هذه الآية محولة بإضافة حرف النفي "لن" المفيدة نفي الفلاح في المستقبل، وإضافة عنصري التوكيد "إذا" و "أبدًا" لإفادة أن هذا الفلاح مؤكد نفيه ^(٤).

(١) يعد دخول حرف الجر الزائد على الاسم عارضاً مؤثراً على شكل الترتيب، وهو تحويل عارض نحويّاً لا دلاليّاً لإمكانية الاستغناء عنه، كما أن الباء يمكن الاستغناء عنها نحويّاً فقط لا بلاغيّاً.

ينظر حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) ينظر ابن جني: سر صناعة الإعراب، ١/ ١٣٩.

(٣) ينظر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٢٤ - ١٢٦.

(٤) ينظر الزخشري: الكشف، ١/ ٢٤٨.

ثالثاً: التحويل بالحذف:

الإيجاز سمة بارزة في اللغة العربية يحققها أسلوب الحذف الذي أنس به حذاق العربية و سموه " شجاعة العربية " ^(١). و للجرجاني كلمة رائعة عن الحذف أوردها في كتابه " دلائل الإعجاز " قال فيها: " إنه باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، و البليغ من يختار الإيجاز ما أمكن التعبير عن فكرته بألفاظ قليلة، و يفضله عن الإطناب إذا لم تكن فيه زيادة معنى أو توسيع " ^(٢).

" و من عادة العرب الإيجاز و الاختصار و الحذف طلباً لتقصير الكلام، و اطراح فضوله و الاستغناء بقليله عن كثيره، و يعدون ذلك فصاحة و بلاغة و يندرج ذلك في الحفاظ على المجهود العضلي و الذاكري الذي يحتاج إليه المرسل ^(٣). و قبل أن نقف على صور الحذف نلفت الانتباه إلى أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الحذف و التقدير و التعليل. و لئن ذهب بعضهم إلى أن الحذف و التقدير و التعليل مسائل خيالية محضة لا يعرف عنها العرب الأوائل شيئاً فذلك - لأن العربي القح إنما نطق اللغة العربية على السليقة ^(٤) (على سجيته) - فإن الحذف و التقدير يوصلان إلى ضبط ما لا يمكن ضبطه بغيرهما. فثمة تراكيب إنشائية (جمل أو وحدات إنشائية) وقع فيها حذف لو لم نقدره ما استطعنا فهمها الفهم السليم. و الحذف الذي يعد عنصراً تحويلياً هو ذلك الذي يسجل في الجملة أو الوحدة الإنشائية التوليدية الاسمية أو الفعلية لغرض في المعنى، و تبقى معه هذه الجملة أو الوحدة الإنشائية الوظيفية حاملة معنى ما.

(١) ابن جني: الخصائص، ٣٦ / ٢، باب شجاعة العربية.

(٢) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٣٢.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)، مجلة اللسانيات، ص ٣٩.

(٤) ينظر الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، ص ٦٥.

وهذه بعض صور للتحويل بالحذف:

١ - حذف المسند:

لحذف المسند لابد من وجود قرينة دالة عليه، لأن الحذف خلاف الأصل، فلا يعدل إليه إلا لسبب يقتضيه مع قيام قرينة دالة عليه، سواء أكانت هذه القرينة حالية أم مقالية^(١). إذ إن المحذوف بدونها لا يعلم بالنسبة إلى السامع، فيخل الحذف بالمقصود. ونقف على الوحدة الإسنادية الفعلية المحولة بالحذف في قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان / ٢٥). فالوحدة الإسنادية الماضية البسيطة "الله" محولة لوزود الفعل الماضي، و المفعول به فيها محذوفين. و بنيتها العميقة "خلقهن الله". والقرينة على المسند المحذوف ممثلة في وقوعه في جواب السؤال المذكور. ولا يقال إن بنيتها العميقة "الله خلقهن"^(٢) لورود ذلك في مثل هذا الموضع في قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف / ٩)، و في نحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَنَ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (التحریم ٥)، و في قوله عز وجل: ﴿قَالَ مَنَ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨ / يس) ﴿يَسْ / ٧٨، ٩٩﴾. وذلك طردًا للباب^(٣).

٢ - حذف المبتدأ:

يحذف المبتدأ لعلم السامع به. و قد خصص له سيبويه بابًا فقال: "هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمراً، و يكون المبني عليه مظهرًا"^(٤). يقصد بالمبني عليه الخبر.

(١) ينظر د. عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في علم المعاني، ص ١٦٢.

(٢) ينظر ابن هشام: مغنى اللبيب، ص ٦٨٤.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي و البنوية اختلافهما النظري و المنهجي)، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، ص ١٣، ١٥.

(٤) سيبويه: الكتاب ٢ / ١٢٩، و ينظر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١١٢، ١١٤.

١ - صور حذف المبتدأ :

كثيراً ما ترد الجملة أو الوحدة الإسنادية الاسمية محذوفة المبتدأ، فيقدر هذا المبتدأ انطلاقاً من فكرة الإسناد أو التكامل بأصل الوضع اللغوي، وهي قاعدة مفادها أن التركيب الإسنادي يشتمل في أبسط صوره على المسند والمسند إليه لفظاً أو تقديرًا. ذلك أنه لا يمكن للعنصر الواحد أن يكون مفيداً بمفرده؛ إذ لا بد من الإسناد المنوي ذهناً حتى تتكون الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية . والمبتدأ يحذف لعلم السامع به.

وقد خصص له سيبويه باباً فقال: "هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمراً ويكون المبني عليه مظهرًا"^(١) يقصد بالمبني عليه الخبر. ويندرج تحت هذا الأسلوب إعراب أوائل السور^(٢). ونقف على هذا النوع من التحويل بالحذف في نحو قوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ (محمد / ٢١). فالجملة الاسمية "طاعة" محولة بحذف المبتدأ. وبنيتها العميقة "أمري طاعة". وقد يكون الخبر هو المحذوف، فتكون بنيتها العميقة "طاعة و قول معروف أمثل". و في كلا الحالين يلاحظ أن الجملة الاسمية محولة بالحذف، فالبنية العميقة التي ينشدها المتحدثي سمت كلام العرب تكون تبعاً لتصور المعنى وتحديده، لأن العمل الوصفي التفسيري هو الذي كان ينشده سيبويه^(٣).

٣ - حذف المفعول به :

إن ارتباط حذف المفعول به مع الفعل بعلاقة المفعولية جعل بعض النحاة يعدون ذلك المفعول ركناً رئيساً من أركان الجملة أو الوحدة الإسنادية الفعلية. وحجتهم

(١) سيبويه: الكتاب، ٢/ ١٢٩.

(٢) ينظر بومعزة رابع: المرجع السابق، صور الجملة الابتدائية الاسمية المحولة، ص ٤٠٦.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: (النحو العربي والبنوية اختلافهما النظري والمنهجي)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩، ص ١٨، ١٩.

في ذلك أن المفعول به في ارتباطه ببؤرة هذين التركيبين الأساسيين^(١) وهما الفعل والفاعل سواء بسواء. و لقد رأى بعضهم أن هذا المفعول به قد يعرض للتحويل بالحذف.

وفي هذا المبحث سنقف على مسألتين كثر حذف المفعول به فيهما في الفاصلة القرآنية.

المسألة الأولى^(٢):

وهي حذف المفعول به بعد نفي العلم، حيث نجد كثيرًا من الآيات تنتهي بالجملة الفعلية (يعلمون) أو (لا تعلمون) دون أن يذكر للفعل واحد من مفعولي أو كليهما نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة / ٢١٦). "فمفعولا " يعلم " و "تعلمون" محذوفان دل عليهما ما قبله أي: و الله يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونها لأن الله يعلم الأشياء على ما هي عليه، والناس يشبهه عليهم العلم فيظنون المتلائم نافعًا والمتنافر ضارًا"^(٣).

المسألة الثانية:

وفيها يسجل حذف المفعول به إذا كان ضميرًا في الوحدة الإسنادية الوظيفية التي قوامها الموصول الاسمي الواقعة في الفاصلة القرآنية. ونقف على نموذج لذلك في قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان / ٩١). أي بعثه الله رسولاً^(٤).

(١) أي الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية الفعلية.

(٢) وقد وردت على هذه الصورة الآيات: البقرة / ٢١٦، ١٠١، ١٣، آل عمران / ٦٦، الأنعام / ٩٧، الأعراف / ١٢٣، ٣٨، ٣٢، الحجر / ٩٦، النحل / ٥٥، النمل / ٧٥، العنكبوت / ٦٤، ٤١، سبأ / ٣٦، الزمر / ٢٩، فصلت / ٣، نوح / ٤، النبا / ٥.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ٢ / ٣٠٨.

(٤) ينظر سيبويه: الكتاب، ١ / ٨٥ وابن يعيش: شرح المفصل، ٦ / ٩٠.

رابعاً - التحويل بالترتيب:

لقد أوضحنا فيما سبق أن اللغة العربية تتميز بحرية النظم، فالكلمة فيها يتغير موقعها مع بقائها محافظة على معناها النحوي^(١). ذلك أن الجملة ينبغي أن تبنى بكيفية معينة في انتظام معين بتقديم، وتأخير، وحذف على ضوء قواعد وقوانين التحويل التي تهدف إلى تحقيق المعنى المراد^(٢). وإن النظام اللغوي للعربية يحافظ على رتب خاصة بالنسبة إلى إجراء الكلام وفق الصور الإسنادية للجملة أو الوحدة الإسنادية. ويمكن أن تتغير مكونات الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية تقدماً أو تأخيراً حين يسمح النظام اللغوي بذلك، وحسب السياق الكلامي^(٣). ودراسة التقديم والتأخير قائمة على دراسة الرتبة في الجملة العربية، فقد حدد علماء النحو الرتبة وجعلوها محفوظة وغير محفوظة.

فإذا احتاج المتكلم أن يؤكد جزءاً من الجملة أو الوحدة الإسنادية بدون إدخال أدوات التوكيد يجد اللغة العربية بقرائنها المتنوعة - وأهمها علامات الإعراب- تساعده على تأدية هذا المعنى. فيقدم الجزء الذي يهتم به. يؤيد ذلك قول لسيبويه مفاده "إنما يقدمون"^(٤) الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهملهم ويعيناهم"^(٥). يعزز ذلك قول للجرجاني فحواه "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام"^(٦). "وإنما يقال: مقدم ومؤخر للمزال لا للقرار في مكانه"^(٧) والتقديم والتأخير مرهونان بالأغراض والأحوال التي تخص المخاطب والسياق الكلامي الذي يرد فيه التركيب الإسنادي في

(١) ينظر د. سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص ٢٠١.

(٢) Noom Chomsky: Aspects de la theorie syntaxique , P 10- 16 .

(٣) ينظر صالح بلعيد: التراكيب النحوية وسياقاتها عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص ١٧٣.

(٤) أي العرب.

(٥) سيبويه: الكتاب، ١/ ٣٤.

(٦) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٨٤.

(٧) الزملكاني: البرهان الكشاف عن إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حمدي الحديثي والدكتور أحمد مطلوب، ط ١٩٧٤، ١، ص ٢٣٢.

صورته"^(١). أي أن الإسناد المحول الواقع فيه التركيب المقدم أو المؤخر منطلق أساسًا من فهم الأحوال المتحولة و المتغيرة للخطاب.

وقد شرح الجرجاني الظاهرة التركيبية لعملية التقديم والتأخير للأركان اللغوية. سواء أكان ذلك على يمين الفعل أم على يساره"^(٢).

"وقد أدرك القدماء أن التقديم والتأخير يتعلقان بالمعنى في ذهن المتكلم.

" فالألفاظ تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس"^(٣).

والترتيب الذي يعد عنصرًا تحويليًا هو ذلك الذي يتم فيه إجراء تغيير يقع على ترتيب عناصر الجملة أو الوحدة الإسنادية الوظيفية بالتقديم والتأخير، من نحو تقديم الفاعل على الفعل، أو المفعول به على الفعل والفاعل في الجملة أو الوحدة الإسنادية الفعلية، ومن نحو تقديم الخبر على المبتدأ في الجملة أو الوحدة الإسنادية الاسمية، أو تقديم الفضلات على أحد ركني الجملة الأساسيين أو عليهما معًا بغية إحداث تغيير في المعنى. فالترتيب عنصر تحويلي يرتبط بالبنية العميقة المتعلقة بالمعنى في ذهن مستعمل اللغة. ويتم بتقديم ما حقه التأخير للتعبير عن ذلك المعنى، ونقله إلى السامع"^(٤). وهذا النوع من التحويل بالترتيب قسم إلى قسمين:

١ - تقديم على نية التأخر ويسمى تحويلًا محليًا.

٢ - تقديم لا على نية التأخر، ويسمى التحويل الجذري. وقد عقد "ابن السراج" بابًا في كتابه "الأصول في النحو" تحدث فيه عن التقديم والتأخير ووجوهه"^(٥).

(١) حلمي خليل: مقدمة لدراسة علم اللغة، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٣، ص ١٠١-١٠٣.

(٢) ينظر د. مازن الوعر: نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية، ص ٤٤.

(٣) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤٠.

(٤) ينظر عبد القادر مرعي: أساليب الجملة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦٣.

(٥) ينظر ابن السراج: الأصول في النحو ٢ / ١٣١ و ابن جني الخصائص، ٢ / ٣٨٢، ٣٨٥.

صور التحويل:

إذا أراد المتكلم أن يجري تغييراً في المعنى عليه أن يجري تغييراً في المبنى.

ويسمى هذا التغيير تحويلاً يأخذ صوراً متعددة، منها ما يكون لغرض القصر. ففي قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر / ٦٦) يلاحظ أن الجملة الفعلية "بل الله فاعبد" قد قدم فيها المفعول به "الله" على الفعل و الفاعل "فاعبد" وصولاً إلى قصر المفعول على فعل الفاعل^(١). أي اقصر عبادتك على الله وحده. وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ (الفاتحة / ٥). يلاحظ أن الجملة المضارعية "إياك نعبد" هي جملة محولة بنيتها العميقة "نعبدك" لإفادة الاختصاص والقصر. ولقد كان نقلها إلى مستوى دلالي خاص يوافق أسلوب القصر الذي يتطلب نقل الاسم عن طريق التفكيك إلى اليمين، ولما كان ذلك يصطدم بنوياً بعدم إمكانية استقلال المتصل بذاته تحتم تحويله إجبارياً إلى قبيله وهو الضمير المنفصل "إياك". وأساس ذلك أن الجملة الفعلية^(٢) التي يكون المفعول به فيها ضميراً متصلاً، حين يراد أن يقصر الحديث عليه دون غيره، فإن هذا الضمير المتصل يتحول إلى ضمير منفصل في محل نصب مقدم على عامله^(٣). فالاختصاص كان بسبب تقديم الضمير المؤدي وظيفة المفعول به.

وقد يكون التحويل بالتقديم لإحداث النغم الذي له درجة كبيرة، وتأثير عجيب على السامع.

ويلاحظ ذلك في فواصل القرآن الكريم في نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (الضحى / ٩، ١٠). ذلك أن الجملتين الفعليتين

(١) ينظر د. سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص ٤٠٨.

(٢) أو الوحدة الإسنادية الفعلية.

(٣) ينظر صالح خديش: (مفهوم التحويل وأنواعه في العربية)، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة قسنطينة، ص ١٨٧.

"فأما اليتيم فلا تقهر"، و"أما السائل فلا تنهر" محولتان بتقديم المفعولين "اليتيم"، و"السائل" على فعليهما "تقهر" و"تنهر"^(١)، وفاعليهما اللذين بنيتهما العميقة "أنت".

"وهذا التحويل قد جعل النص محملاً بطاقة تأثيرية عالية جداً في الجانبين المعنوي، والصوتي التنغمي"^(٢).

ثالثاً: نظرية الحمل:

قبل أن نعرض لنظرية الحمل البالغة أهميتها نلفت الانتباه إلى أنه شاع في بعض المؤسسات "المعاهد و الكليات" القائمة على تعليم قواعد اللغة العربية دعوة ينادي أهلها بضرورة تطوير القواعد النحوية، وهو تطوير لئن كان أصحابه مختلفين في تسميته، فإنهم غير مختلفين في حقيقته، تراهم يسمونه تارة "تهذيباً، وتارة تيسيراً وتارة إصلاحاً، وتارة تجديدًا، وهم في كل الأحوال يعنون به التحلل من القوانين التي صانت اللغة العربية خلال ألف عام أو يزيد. ولقد اقترنت هذه الدعوة بالكلام عن صعوبة اللغة العربية، و توقفها عن النمو والتطور وتخلفها عن مسايرة العصر، و الانتفاع بما استخدمه الدارسون في اللسانيات الحديثة عند الغربيين. ولنا أن نتساءل: لماذا كثر الكلام عن صعوبة القواعد النحوية في النصف الأخير من القرن الماضي؟ ولم ينتبه أولئك الداعون إلى وجود هذا النقص في العربية إلا في هذا الظرف؟ أليس ذلك تقليدًا للغربيين الذين اقترحوا اتخاذ اللهجات المحلية لغات لتحل محل اللغة العربية الموحدة؟ و يكفي في إقامة الدليل و كشف الغطاء عن سوء نية الداعين أن نسوق هذه الفقرة من كتاب طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر" حين دعوته إلى فتح باب التطوير في اللغة العربية ودراساتها. "وفي الأرض أمم متدينة، كما يقولون، وليست أقل منا إيثارًا لدينها، ولا احتفاظًا به، ولا حرصًا عليه ولكنها تقبل في غير مشقة و لا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر

(١) ينظر د. سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص ٤٢٩.

(٢) د. سناء حميد البياتي: المرجع نفسه، ص ٤٣٠.

بها و تصطنعها لتأدية أغراضها، و لها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة، و تؤدي بها صلواتها. فاللاتينية مثلاً هي اللغة الحديثة لفريق من النصارى، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع (...). و بين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها، ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم، و لغتها الدينية هي اللغة العربية و من المحقق أنها ليست أقل منا إيماناً بالإسلام، وإكباراً له، و زياداً عنه، و حرصاً عليه^(١).

و يحسن بنا أن نورد الآيات الواضحة الدلالة، التي ينبغي لقارئها، وقارئ ذلك النص^(٢) أن لا يغيب عنه الشعار الذي اتخذته طه حسين في صدر الكتاب السالف الذكر حين إثباتها على غلافه. و هذه الآيات هي:

خذي هذا و حسبك ذاك مني	على ما في من عوج و أمت
و ماذا يتبغي الجلساء مني	أرادوا منطقي وأردت سَمَتي
و يوجد بيننا أمدٌ بعيدٌ	فأتموا سمتهم وأمت سَمَتي

وهي آيات واضحة الدلالة لئن لم يصرح فيها بكل ما في نفسه خشية أن يتعرض لما تعرض له حين إخراجه كتاب "الشعر الجاهلي"^(٣)، فهي يراد منها أن لا نتحى سمت كلام العرب الأقحاح الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم.

إن الوسيلة إلى تحقيق نهضة و تطوير في قواعدنا النحوية تكمن في إتقان هذه القواعد لا في الاستغناء عنها. و إذا كانت تلك المحاولات لم يكتب لها التوفيق و النجاح، فذلك لأنها ابتعدت عن الأصول النحوية و اصطدمت بواقعها المعيش.

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف، ١٩٤٩. ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) وقد رأى الدكتور محمد محمد حسين أن هذا الكلام ليس من صنع طه حسين، فهو ترديد لما قاله القاضي الإنجليزي "ولمور" في كتابه "عامية مصر"، طبعة لندن ١٩٠١، ص ١٥. ينظر د. محمد محمد حسين: تطوير قواعد اللغة العربية، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، المملكة العربية السعودية، ١٤١٥، ص ٥٣.

(٣) د. محمد محمد حسين: المرجع نفسه، ص ٥٥.

فأدركنا أن إصلاح النحو ومنه صور الجملة، والوحدة الإسنادية الوظيفية يكمن في إعادة دراستها دراسة جديدة، لا تمس جوهرها، بل تحاول التسهيل في الأسلوب والعرض، وتعمل على حذق الآراء - بما فيها الشاذة - ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، مع ضرورة إخراج هذا التراث العظيم إلى حيز الوجود في ثوب جديد يسر القارئين طلابًا وباحثين. وعليه فإن هامش الاجتهاد لدى من تشغله هذه المسألة سيبقى في التيسير، ولكن ليس ذلك التيسير الذي يدعو إلى الاستغناء عن بعض الظواهر النحوية، من مثل مطالبة بعضهم بالاستغناء عن الإعراب المحلي وإلغاء الضمير المستتر... إلخ، لأن في ذلك فسادًا للغة، ولا ذلك التيسير الذي يبقى يحوم حول التقيد بعرض المتحجر من النماذج غير الوظيفية التي لا نقف أحيانًا على نظائرها في أهم مصادر تراثنا اللغوي، فهي تثقل القارئ فحسب.

والتيسير الذي نتوخاه هو ذلك الذي يحرص على تطوير اللغة العربية، ويشمل تذليلًا وتفسيرًا لكل البنيات العميقة التي لصور الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية مثلاً، والذي يلتزم القياس الصحيح. ولما كان النحو العربي قياسًا، فإننا نحسب أن ظاهرة الحمل التي لا يكاد يخلو باب من أبواب النحو من آثارها باعتبار أنها مكملّة للقياس حرية بأن تستغل أحسن استغلال في تيسير استيعاب كثير من المسائل النحوية و الصرفية. حيث إن كثيرًا من تلك المسائل لو أدرك أنها محمولة على غيرها لسهل فهمها. فمثلاً المشتقات الخمسة التي تسمى "الوصف" ممثلة في اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة والصفة المشبهة^(١) وأفعال التفضيل يدرك ويفهم كيف أنها تعمل حين يعرف أنها محمولة على أفعالها، ومن ثم يسهل ويهضم سبب إعراب ما بعدها على أنه فاعل أو نائب فاعل لها.

وأساس ذلك أن أصل العمل إنما يكون للحروف والأفعال. ويدرك

(١) ينظر د. تمام حسان: الخلاصة النحوية، عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٢٧، ١٢٨.

بفضل ظاهرة الحمل أن المشتقات الثمانية الاسمية كيف أنها في باب الإعلال والإبدال تعتل وتبدل حملاً على أفعالها، وكذا يدرك أن المصدر على الرغم من أنه أصل كيف أنه في ذلك الباب يحمل على الفرع فيعتل ويبدل و يعمل حملاً على فعله^(١).

نظرية الحمل:

لما كان تدوين النحاة للغة التي استنبطوا منها ذلك النظام ممثلاً في القواعد النحوية من خلال سماعهم ما انتقوه من القبائل المشهورة بالفصاحة غير مستوف^(٢)، حيث إنه لم يصل إلى أسماعهم كل ما قالته العرب في أغراضها المختلفة^(٣)، لم يجدوا مناصاً من الاستعانة بالقياس الذي أجروه على سماعهم ليشكل معه منهجهم في تكوين الأنظمة اللغوية (قواعد الانتحاء).

واللافت للانتباه هو أن علماء هذه اللغة لما تفتنوا إلى أن ثمة مسائل نحوية وصرفية قد تخرج عن القياس أو الظاهرة المطردة، لم يجدوا بُدّاً - وهم يقننون لهذه اللغة - أن يستعينوا بإحدى الوسائل التي من شأنها أن تمكنهم من لمّ شتات المسائل الخارجة عن دائرة هذا القانون المطرد، وإرجاعها إلى حظيرته، فاهتدوا إلى ابتكار ما يسمى "بنظرية الحمل" التي تعتمد إلى خلق نظام دقيق ذي سنن عامة تحاول أن تضبط تحتها كل مفردات الظاهرة اللغوية^(٤). ولعله حين استقرائنا واستقصائنا بعض صور هذه النظرية سنجد كيف أن هذه النظرية تؤدي دوراً بالغة أهميته حين

(١) ينظر بومعزة رابع: تصنيف وتحليل لصور الإعلال والإبدال في المشتقات الأحد عشر والمصادر، ص ٦٠، ١٥٠.

(٢) يؤيد ذلك ما صرح به أبو عمرو بن العلاء حين قال "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير".

(٣) ينظر السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ٢ / ٣٠٤.

(٤) ينظر د. عبد الفتاح حسن على البجة: ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية، دار الفكر للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٨، ص ٦.

تفسيرها وتأويلها أو تقديرها المسائل الخارجة عن القواعد المطردة^(١) على نحو ألحقت فيه المسائل غير المقيسة بالظواهر الأصول "الأم"^(٢).

فما مفهوم نظرية الحمل التي لها هذه الأهمية في النحو العربي؟ جاء في محيط المحيط: "حمل الشيء على الشيء: ألحقه به في حكمه، وحمل النظر عند النحاة: إجراؤه مجرى نظيره باعتبار جامع بينهما"^(٣). فهو "إعطاء الكلم حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها في نوعها، ولكن توجد بينهما مشابة من بعض الوجوه"^(٤) وهو "قياس أمر على أمر وتحميل أحدهما على الآخر"^(٥).

فالمتعلم الذي يُدرك ويتذكر مُؤَهَّلٌ للقيام بعمليات عقلية أكثر تعقيداً. ويأتي القياس في مقدمة هذه العمليات. جاء في لسان العرب أن قياس الشيء يعني تقديره على مثاله^(٦). ويعرفه علماء الأصول بأنه "إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه للاشتراك بينهما في علة الحكم، ففي القياس يقارن العقل بين موقف معين وموقف معلوم يماثله أو يناقضه"^(٧).

والتقدير تعليل يتجاوز الوصف الظاهري لنظام اللغة^(٨) وإن من منطلقات النحاة الأوائل كالحليل وسيبويه في الدرس النحوي التي أكدتها اللسانيات

(١) المطردة المقيس عليها بغض النظر عن كونها أصلاً أم فرعاً. و المطرد في القياس هو أن يوافق المقيس عليه قاعدة أصلية. ينظر د. عبد الفتاح حسن على البجة: المرجع السابق، ص ٨٢.

(٢) ينظر د. عبد الفتاح حسن علي البجة: المرجع نفسه، ص ٦.

(٣) ينظر بطرس البستاني: محيط المحيط، مادة حل. ص ٤٩٥.

(٤) ينظر محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٥٣ هـ، ص ٢٧.

(٥) ينظر د. محمد نجيب اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ص ٦٧.

(٦) ينظر ابن منظور: لسان العرب، ٦/ ١٨٧.

(٧) ينظر د. عبد الرحمن صالح عبد الله: الأهداف السلوكية في التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٦٦.

(٨) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: أول صياغة للتراكيب العربية، نقلاً عن حسن خيس سعيد الملق: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ٢٥٠.

الحديثة^(١) القياس الذي هو إجراء رياضي يحكم تحويلات الفرع إلى الأصل بعلّة هي مسوغ خارجي^(٢) ليس جزءاً من البنية اللغوية^(٣) إذ لا تظهر في التركيب السطحي. وإنما هي منوية ذهنياً في البنية العميقة، ومن أهم أنواع الحمل: الحمل على الأصل والفرع "الأصل أول يبنى عليه ثان"^(٤)، "و الأصل ما يبنى عليه غيره"^(٥).

"والأصول من حيث إنها مبنى وأساس لفروعها سميت قواعد"^(٦). وهي ليست إلا فكرة مجردة أو صورة ذهنية استنبطها النحاة من استقراءهم طبيعة الكلم^(٧) "والفرع ثان يبنى على أول"^(٨) لأن الأصل "هو المعنى الأول الذي تؤول إليه كل صورة"^(٩) والنحو العربي في أصله بني على مفهوم الأصل والفرع. وحين ميز النحاة الأصول عن الفروع عدوا الأصل العنصر الثابت أو النواة، أما الفرع فهو الأصل بزيادة إيجابية أو سلبية. ويحصل عن طريق التحويل الطردى برد الفروع إلى الأصول، فيكون التحويل عكسياً "فهو تحويل يخضع لنظام من

(١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: المدرسة الخليلية الحديثة، نقلاً عن حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي ص ٢٤٩.

(٢) يقصد بالمسوغ الخارجي أنه يبنى على افتراض يقتضيه العقل، مثل الفعل "قال" أصلها قول.

(٣) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: منطلق النحو العربي، نقلاً عن حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي، ص ٢٤٩.

(٤) الرماني: الحدود في النحو، تحقيق دكتور مصطفى الجواد، ١٩٨٩، ص ٤٢.

(٥) علي الجرجاني: كتاب التعريفات، ص ١٧٢.

(٦) علي الجرجاني: المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(٧) وقد استخدم النحاة فكرة الأصل والفرع في كل مجالات الدرس النحوي وبخاصة في أقسام الكلام الثلاثة (الفعل، والاسم والحرف) فيما يتعلق بالإعراب والبناء وفيما يتصل بالعوامل. ينظر د. عبد الفتاح حسن علي البجة: ظاهرة قياس الحمل، ص ٦٧.

(٨) الرماني: المرجع نفسه، ص ٤٢.

(٩) د. منى إلياس: القياس في النحو مع تحقيق باب الشاذ من المسائل العسكرية لأبي علي الفارسي، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥، ص ٣٢.

القواعد والتفريع. وبالتالي له مقابل وهي الحركة العكسية للتفريع. فكل دال لغوي بالنسبة إلى النحاة العرب إما أصل يبنى عليه غيره، أو فرع يبنى على الأصل أو الأصول^(١). فالتحويل التقديري الذي يفسر البنية التي يحدث فيها اللبس، يشمل في النحو العربي الأصل المستوى التركيبي ومستوى الكلمة^(٢).

كيفية توظيف نظرية الحمل في تيسير استيعاب صور الوحدة الإسنادية الوظيفية:

الأصل في الأسماء ألا تعمل، وإنما العمل للأفعال و الحروف. غير أن بعض الأسماء و منها الوصف قد جاء عاملاً لكونه محمولاً على فعله. ففي الآية الكريمة: ﴿تَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾ (النحل / ٦٩). نجد أن اسم الفاعل "مختلف" عَمِلَ فَعْلَهُ اللازم "يختلف". فاكتمى برفع الفاعل "ألوانه" حملاً على فعله. وتوظيف نظرية الحمل يصبح الوصف مع مرفوعه مشكلين وحدة إسنادية مضارعية تؤدي وظيفة النعت للمنعوت النكرة "شراب". كذلك الوحدات الإسنادية المؤدية وظيفة ما هي محمولة على المفرد الواقعة موقعه. و نظرية الحمل ترى أن البنية العميقة لتلك الوحدات الإسنادية لا تخرج عن أن تكون مصدرًا صريحًا، أو مشتقًا.

(١) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: المدرسة الخليلية الحديثة، المرجع نفسه، ص ٢٤٩.

(٢) ينظر د. عبد الرحمن الحاج صالح: المدرسة الخليلية الحديثة، المرجع نفسه، ص ٢٤٩.